

لقطة



محمّد الحليم عبد الله

لقبـطة

لبـلة غرام



قصيدة

ليلة غرام

القصيدة الحائزة على الجائزة التي أنشأتها هدى هانم شعراوي

وقام بتوزيعها مجمع اللغة العربية

في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٥

تأليف

محمد عبد الحليم عبد الباق

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه



رب ارفع عنى لعنة أبوى ...
مريم فخرالدين فى مشهد من فيلم ليلة غرام (المأخوذ عن لقيطة)
انتاج عبد الحليم نصر



عاشت لیلی وماتت زینب !

١

« هي طفلة ولدتها الرذيلة ! »

هذا ما تهاومت به الأفواه في الصباح الباكر في ملجأ ج...
ماجاً اللقطاء ، لما دخلته طفلة جديدة في يومها الثاني .

وفتح السجل وكتب اسم ليلي بعد آخر نزيل ، ولم يكن في
الخرقة التي لفت فيها ، والتي كانت نصيبها مما تستقبل الدنيا
به المواليد - الا خصلة من شعر أصفر جعلت سوارا ذهبيا
على معصها الأيمن ، لكنه سوار رخيص لا يشتري ولا يباع .

وسميت ليلي ولم يكن لأبويها في اسمها رأى ...

ووجدت في قرية من قرى الريف على مقربة من القاهرة ،
وعلى جانب من طريق سابلة تحت شجرة على رأس مزرعة
خضراء ... ولا بد أنها نامت تحتها طول الليل ، أو على الأقل
شهدت في هذه البقعة انجياب الفسق قبل أن يشرق عليها أول.

شعاع من أشعة الشمس . ترى أين كانت سباع الريف ، فربما جاء الخلاص في صورة ثعلب أو ذئب ؟

نامت عنها لأنها تريدها ، وظالما نادتها بالصراخ المختنق بعد أن طبعت أمها على فمها أول قبلة وآخر قبلة ثم أودعتها خرقتها ، ولت ذبولها ، وتلفتت حولها ، وغابت في الظلام ... الأسرة في الملجأ مصطفة في أبهائه الواسعة وحجراته الفسيحة ، ينام عليها أطفال اختلفت ألوانهم وأسنانهم وأسرههم وطبقاتهم ، واتفقوا جميعا في أنهم غرباء هبطوا الدنيا على غير رغبة منهم ولا رغبة فيهم . يرتفع بكاء طفل أو طفلة هنا أو هناك فلا يلبث أن يردد بكاءه كثيرون كأنما سرت بينهم العدوى التي تسرى في الضفادع ، حين تردّد النقيق جماعات اذا بدأت به احداها .

أما الخدم فأنهم يروحون ويحيئون في تلبد وفتور ، كأنهم يعتقدون أن أدنى الخدمة عظيم لهؤلاء الواغليين على المجتمع القاطعين عليه طريق سيره المنتظم ، كأنهم النعمة الناشزة في اللحن المنسق الجميل .

وتأبّت المرضعات وتمطين ، ومسحن أعينهن قبل أن يجدن بلبانهن على غير أولادهن . وجلست زينب وزليخا فقالت الثانية :

— صباح جميل يا اختاه . أرجو أن يكون لبنك سخيا كوجبة عشاء البارحة !

فقال زينب :

— انه أغزر مما تظنين ، لأننى أطلع اليوم وجهها جديدة
ما انفتحت عيناي على أروع منه ، فتعالى الى ترى أجسل
زهرة تفتحت عنها أكام الوجود !

— زهرة من حديقة الشيطان ! ما لنا وللأزهار يا زينب ...
دعها في حدائقها تجذب الناس بعبيرها والنحل بمفاتن ألوانها ،
ودعى الندى يغسلها والهواء يرقصها ، فلسنا نعيش بين أزهار !
— لله درك يا زليخا ! أبدا تكذبين ما أقول وتفسدين
ما أعتقد !

— لله دري ! أى در هذا ؟ أهذا الذى رضعته أم هذا
الذى أرضعه ؟ أما الذى رضعته فليس لله فيه شيء ؛ لأن أمي
— رحمها الله — انما ولدتنى للشقاء . وأما الذى أرضعه فليس
له خالصا ، فنصفه بأجر ونصفه بمثوبة . ألا ترين أن أجورنا
في الملجأ لا تكاد تكفى حاجات من نعول ؟
— ألا تشعرين بخنان نحو هؤلاء الأطفال ؟ تذكرى مرة
أنك ترضعين ولدك !

— ومتى يحين فطام كل هؤلاء ليقدموا الى حق الأمومة
وأصبح غنية ؟ ومتى يصيرون شبانا وفتيات ليجعل الله لى فى
كل بلد نسبا وصهرا ؟ رحمك الله فما أشد ما تهذين !
— خلى بينى وبين قلبى ، فانى عطوف على كل هؤلاء
ناشدتك الله أن تعيثنى ترى هذه الزهرة ، ولتكن من حديقة
الشيطان كما تقولين .

حدثوني أنها وجدت في الريف فلا بد أن عينيها الخضراوين
هاتين قبستا اللون من نضرة الربيع . انظري الى الضوء حين
يخالطهما والى عمقهما اللانهائى وما عسى أن يكون كامنا فيهما
من فتنة مستترة يوما فيخر لها الأبطال ، وهذا الفم الدقيق
المختصر ، وهاتين الشفتين اللتين تستهويان النحل ، والشعر
الذى لم يجز بين تلافيفه مشط ولا ماء ، ولم تتناوله بعد يد
يتنظيم ولا ترتيب ، انه ذهبى فاتن !

لقد كان هذا الجمال خليقا بأن يولد في مخدع أمير أو على
فراش ملك ، ولكن الزمان جرى بغير قياس : فهنا غواص
يشق أطباق الماء ليجث عن لؤلؤة فلا يجدها ، والبحر يقذف
هناك على الشاطئ الآخر بدرة لا تجد لها لاقطا .
انظري اليها ... نظيفة ، كأنها غسلت بالعطر باسمه كأنها
واثقة بالمستقبل ، وادعة كأنها في فراش أبويها ! كأنى بها يازليخا
من أبوين كريمين خدعها عنها لص ، وزج بها بين اللقطاء .

— خطبة بليغة وحنان مشاع ، وقلب عجيب الخلق وسع
الناس جميعا ، وأخاف أن أقول : ووسع الأرض والسماء .

— لا فرق بينى وبين أم هذه الطفلة ، الا أننى أحببت
فتزوجت وهى أحبت ولم تتزوج . وجمع بينى وبين زوجى
حب وشريعة ، وجمع بينها وبين رجلها حب بلا شريعة . ولو
كان في الحوادث عظات ما وقع الا الحادثة الأولى ، وما كان في
هذا الملجأ الا لقيط واحد ، أو لقطة واحدة على فرض أنهم
أنشأوه .

هذه أحبت فخدعت ... ولا يزال الناس بعدها يحبون
ويخدعون . وهذا قتل فقتل ولا يزال الناس بعده يقتلون
ويقتلون . وهذا سرق فحبس ولكن لا يزال الناس يسرقون
ويحبسون . تلك نزوات منذ درج الانسان على الأرض ووضع
قوانين الاجتماع ، وستبقى الى أن تطوى السماء وتسير الجبال .
أما العظة ... فلا عظة الا لمن عصمه الله .

وبقى ملجأ ج .. رابضا في أحضان الصحراء ضاحيا للشمس .
طول النهار ، والعمل فيه كالمنظر الذي من حوله كلاهما جار
على نسق واحد لا يكاد يتغير ... خدم يروحون ويجيئون في
الطراقات التي بين الأسرة يشرفون على حاجات الأطفال ،
وأطباء يفحصون المرضى ، وطهاة يجهزون الطعام ، ومعلمون
يثقفونهم ليحملوا سلاح الحياة ، وطفل أو طفلة تحل اليوم
فيه ، وغلّام أو فتاة تغادره بعد أن أخذت نصيبها منه .

والشمس تشرق في الصباح فتلقى اليه سلام اللقاء ، وتغرب
في المساء فتحييه تحية الوداع ، وكل شيء فيه لا يتغير .

وليلي في سريرها قد مر عليها عامان وأتمت عهد الرضاع
وألفت زينب بعد أن طبعت احساسات الطفولة في ذهنها
صورة رأتها أربعة وعشرين شهرا وهي نائمة في حجرها راضعة
لثديها . وسواء ألهمتها الغريزة أنها هي التي ولدتها ، أم أنها
بدل التي ولدتها ، فانها أحببتها على كل حال .

فلزينب كانت المناغاة والبسات ، وبها كان الأنس والوحشة ،

واليها كان الشوق واللهفة . كل أولئك من طفلة على عتبات
الوجود ما عرفت رياء الدنيا ولا ثقافتها .
ولو أن قلب المرأة يتفلسف لجزى هذا الحب بالحب ، وهذا
النداء بالاجابة . ولكنه غنى عن الفلسفة فالأم تحب كل طفل ،
وتختص طفلها بنوع من الحب . فهل كان هذا موقف المرضعات
في الملجأ ؟

لم يكن كذلك على التحديد ؛ لأن المهنة تؤثر في الوجدان
وتقلل الاحساس بالألم واللذة ، وانك حين ترى أمًا مكبة على
طفلها ترضعه ، ترى كل جارحة من جوارحها تناديه بأن تغذ
لتعيش ، وعش طويلا لأملك . وحين ترى مرضعة مكبة على غير
طفلها ترضعه ، ترى كيف تكون الأمومة مهسة تؤدي وحرفة
تحترف . ويخيل اليك أن كل جارحة من جوارحها تساوم الطفل
فيما ينال من لبن مساومة صامتة بين قوى وضعيف .

غير أن أمورا خارجة عن كل هذا عطف قلب زينب نحو ليلي،
فأحبتها وبسطت عليها رعايتها ، وأخذت ترقب في وجهها كل يوم
تفتح الجمال ، ووثوبه الى الاكتمال بلذة وشوق يفوقان حد
الوصف . وتتبعها بصرها حين تحبو في ثوبها الأبيض ثم تعود
اليها فتتلقاها بقبلة حتى كأنها تقول : حرمت الجمال الفذ فيسن
وتلدت ولم أحرمه فيمن أرضعت ... اني أحبك يا ليلي !

وهكذا تجرى الطبيعة دائما على سنة « التعويض » ، فاذا
قصت من طرف في خلق زادت بديله في طرف آخر : بصر كايل
وسمع مرهف ، وجسم ضئيل وجناحان ينهضان به . هذا اذا

أريد للمخلوق البقاء ، والا فانه يولد ميتا ... وقد كتب لليلى
أن تعيش فكانت زينب .

ولا تجد عاطفة من العواطف أقدر على النهوض بنفسها ولا
أبقى على الزمان ولا أدور على اللسان من عاطفة الحب . وليس
في قصص العواطف أقدم ولا أوفر من قصة الحب ولأمر ما
لقت الناس وشغلتهم . والا فما الذي يدعو غريبا أن يطارد
محبين اختلسا من الزمان ساعة وسارا في طريق خالية ، ليعرف
مدى سيرهما وغاية لقاءهما ثم موعد رجوعهما ؟

قد يكون للعاذل العذر في مراقبة الحب الجنسي ، لأنه نوع من
الشهوى والتمنى يصحب الحرمان أو يكون قرين الجشع ، ولكن
ما عذر ذلك الذي يريد أن يكشف السر عن محبة رجلين أو
محبة امرأتين ؟ ليس لذلك من سبب الا أن عاطفة الحب غراء
مخجلة بين العواطف .

كذلك كان شأن المرضعة ورصيعتها . فقد كانتا في الملجأ
حديث السادة والخدم ، وقامت المراهنات بين المرضعات على أن
زينب تعرف أبوى ليلي أو أحدهما على الأقل ، وأنها تأخذ ثمن
عطفها ورعايتها . وقال أناس : انها ستبناها لتتخذ من جمالها
وسيلة لصهر كريم أو رجل عظيم .

٢

قال ناظر الملجأ لكبيرة الخدم :

— ان الأمور هنا تجرى على غير ما يرام ، وان تقشى الحمى بين الأطفال لظاهرة مزعجة ان دلت على شىء فانما تدل على سوء الادارة واهمال النظافة . وقد كنت وضعت فيك ثقتى ولكنك عرضتني لنقد الناقدين ولوم اللائمين . لقد بلغت نسبة المعزولين من المرضى درجة عالية ، فأرجو أن تلاحظوا أعراض المرض وتبادروا بالعزل حتى يجىء الطبيب . وأرجو أن تضعوا لهذه الأمور حدا حتى لا تسوء المغبة .

قالت كبيرة الخدم :

— لقد تعبت من اصدار الأوامر يا سيدى وليس هناك من يستمعنى ، وأنا لا أكاد أجد فيها مخلصا فى عمله . انهم مستهينون بواجبهم الى حد بعيد يتعذر فيه أن أشكو اليك ، فهم كالبيت الذى لا يصلحه الا الهدم ولا ينفع فيه الترميم . فمرنى أنفقد ما تأمر به .

قال :

— أبلغهم جميعاً أنني لن أسمح مع أحد بعد الآن ، واني سأوقع بالمتهاون أشد عقوبة ... ولكن خبريني ... هل ظهر مرضى جدد ؟

— ليس هناك الا طفلة واحدة عمرها ثلاثة أعوام واسمها ليلي ...

— حسن جداً . أرجو أن يكون الطبيب باذلاً عنايته لاهاذ هؤلاء المساكين ، وأن ينفذ المشرفون على العلاج أوامره بدقة لتقل نسبة الوفيات .

— كل شيء سيرضيك حتماً يا سيدى ... طاب يومك . فأوماً برأسه محيياً .

ولم تمر فترة حتى اجتمع خدام الملجأ جميعاً في بهو من أبهائه ، ووقفت بينهم كبيرتهم تبلغهم انذار الناظر وتشديده النكير عليهم . فسرت فيهم حماقة الجاهل حين تدركه نعمة لا يعرف مصدرها . وأبدى فريق منهم الاستغناء عن العمل ، وزعم فريق ثان أنهم غير مشكورين وان بذلوا الجهد الجهيد ، وانهم يؤدون من الخدمات ما يعدل أجرهم ثلاث مرات وكان الفريق الخائف من الوعيد أكثر بقليل من الممثل المطيع .

وتناثرت في حواشى الجمع كلمات غير مربحة اشمازت منها الرئيسية ، فأهابت بهم أن يعودوا الى الصواب ، وأن يعرفوا حقيقة المهمة التى نيظت بضمايرهم . فلم تجد أذناً واعية ولا قلباً رقيقاً ، فعادت تتسخط على الزمان الذى طوح بها بين هؤلاء

(لقيطة)

الجهلاء ، والظروف التي أحوجتها لمثل هذه المهنة . ولكن صوتا
نسويا رقيقا شق تلك الجلبة المختلطة وقال بلهجة حنون :
— سيدتى الرئيسة : لا تعقدى على أحد من هؤلاء أملا ،
فكلهم غوغاء !

لم تكن المتكلمة سوى المرضعة زينب التي كانت مندسة
وسط الجمع بقوامها الناحل ووجهها الساهم ، وعيناها عالقتان
بالرئيسة وقد سبج إنساناهما فى الدمع ، وكأنها كانت تعاني
صداعا ؛ لأن ذراعها اليمنى محمولة على رأسها بحيث تدلت كفها
الى جانب صفحة وجهها الأخرى .

وما ان طرقت أسماع القوم هذه الكلمة حتى غمرهم سكون
انفتحت بعده الأفواه . فمن قائل : لا شك أنك من أسرة نبيلة
خانها الزمن فجت مرضعة فى هذا الملجأ . ومن قائلة : لا بد أن
لك اليوم سنداً من رجل عظيم ، فنحن نحس دلالة فى هذه
الأيام ! ومن قائل : دعوها فإن ليلى بنتها مريضة بالحمى ، وهذا
هو سر ثورتها عليكم . وأخيراً — والموقف خاطف لم يعط الرئيسة
فرصة لوضع حد للجدل — تقدمت خادم بدينة مقتولة العضدين ،
وأقبلت فى ثورة وصخب تقذف بكلمات السباب متداخلة متلاحقة ،
وأمسكت بتلابيب زينب ثم لكمتها لكمة شجعت الحاقد والحاقد ،
ونبهت المغيظ والمغيظة فنالت من الضرب ماضحها على الأرض ..
جرت هذه الحوادث بسرعة ما تطرف العين أو يتراقص الشعاع .
ثم انقضى الجمع ومرت فترة أخرى ، واجتمع الحضور فى مكتب
الناظر . شرحت كبيرة الخدم ، لا لاقته هى وزينب من عنت القوم

وسوء أخلاقهم ، وأشار الناظر الى زينب بأن تتكلم ، فتعلقت
أنفاس المعتدين وتوقعوا أنها ستكيل لهم التهم كيلا ، غير أنهم
سمعوها تقول :

— سيدى الناظر ، لست متألّة من شيء ولا باكية على شيء
الا على هؤلاء الأطفال ... انهم يأخذونهم بجريرة غيرهم وهم
أصحاء ويهملونهم وهم مرضى .

ان لى فيهم طفلة لا أدري لم عطف الله نحوها قلبى حتى أحس
أننى أمها — لاقيت منهم فى سبيلها كل مرير ، وهى اليوم مريضة
بالحمى غائبة عن نفسها . وقد سهرت بجانبها لأننى أحببتها ،
فكنت رحمة عليها وعلى من حولها .

أزهار يا سيدى يلقى بها فى أتون مستعر ، فتأكل النيران
نضرتها كما تأكل جفيف الحطب !

ولقد بكيت الليلة البارحة للطبيب الذى يعودهم ، ورجوته
بدمعى أن يخفف عنهم آلامهم ، فنهرنى وزجرنى ، وزعم أننى
أتهمه فى ذمته ، وأننى أكلفه وصل الأعمار . وأقسم لك يا سيدى
أننى غير كاذبة ولا متكلفة ، فأنا رقيقة القلب عصبية المزاج
يثيرنى منظر المتألم ولو كان طيرا !

وقد أحببت ليلى وأشفقت عليها وأسهر بجانبها . آه لو
رأيتها يا سيدى الناظر ، ورأيت عينيها الخضراوين وشعرها
الأصفر ...

فقاطعها :

— بحسبك وكفاك ، وكفاني أيضا ما سمعت . انصرفوا جميعا وستعلمون ما أمر به .

هزت حوادث هذا النهار ملجأ ج ... هزة طفيفة الا أنها شعر بها جميع ساكنيه ، وخلقت روحا من الحذر والقلق في نفوس الخدم ، وشيئا من الغيرة في نفس الرئيسة ؛ فانها خشيت أن تنال هذه المرأة الظاهرة حظوة عند الرؤساء . وأيقظت اتباع المشرفين الى حد ما وان لم يكن كبيرا . ثم سارت الحياة بعد ذلك على نمط قريب من الأول الا أنه أقرب الى الحسنى .

وألقت الشمس تحية الوداع الى الملجأ في كنف الصحراء ثم اختفت وراء الأفق ككل يوم ، ولف الظلام ذلك البناء الحسن . ومز هزيع من الليل ، ونام كل من هناك ناعما أو غير ناعم .

وبدا للعين في الملجأ جناح منعزل تلمع فيه أضواء زاهية ، وتدب فيه حركة غير عادية . ذلك هو جناح المرضى من الأطفال وقد بقى شطرا آخر من الليل على هذه الحال ، ثم نام الموكلون به فلا تسمع فيه في الفينة بعد الفينة الا أنه لطفل مريض ضعيف ... تسمعها ضئيلة ممدودة كأنها من أعماق قبر .

وعلى سرير من السرر نامت ليلي سيئة الحال مرقوبا فيها قضاء الله ، وجلست بجانبها امرأة مكبة عليها ترفع وجهها الى السماء تارة ثم تهوى به اليها تارة أخرى . ولن يكون في نساء العالمين من يجلس منها هذا المجلس سوى مرضعتها زينب .

— لهف نفسى ... انها تحتضر ... كأنى بها تحتضر ... أحقا أنها ستموت ؟

أغفلت عنها الذئاب هناك لتسوت هنا على هذا الربر
وليكون لها من عيون الناس عين تبكى عليها ؟
ربما كانت هذه حكمة أخرى الله أجلها من أجلها ! لا شك أن
أبويها الآن نائمان ... ربما كانا حالمين وربما كانا ميتين ، فهما
لا يعرفان عنها شيئاً ، وهى لا تعرف عنهما شيئاً .
شد ما تقطع القوانين ما تصله الخليفة ! وكم تحمل الطاقة
البشرية من ألم تخفيه وكأنها لا تحمله ! لا شك أن أمها ككل
امرأة تألم لما يقاسيه الناس وتبكي لما يبكي الناس له ، ولكن
قانوننا أحال قلبها صخرًا فنزعت فلذة من كبدها وطوحت بها في
الفضاء .

وبعد . فقد فرضت عناية الله على ما أعفت أمها منه .. ليلي ..
أتحسين ألماً ؟ ما بالها لا تجيب ؟
آه ... سيدى الطيب ... هل جئت ؟ يخيل الى أنها
تموت !
قال بلهجة المتأفف :

— انها ليست ميتة وليست حية ... وقد تموت وقد
لا تموت ... كل شيء بقضاء وقدر . ما هذا الجزع العجيب
يا هذه ، أنت غنية بالحنان كما سمعت الا أنك ثرثرة ، فكفى عن
الهذيان حتى لاتزعجى المرضى . أم تراك قد حملت عن المحمومين
مئونة هذيانهم ؟

— عفوا يا سيدى فلن أتكلم ... غير أنى سمعت من الخدم
أن هذا البيت كان منحوسا على أهله قبل أن يتخذوه ملجأ ..

فضحك الطبيب ضحكة خاطفة فاضت من جوانبها السخرية
وقال :

— الآن عرفنا سر انتشار الحمى . ولم يلبث أن انصرف .
يمز على الانسان ألا يجد سببا واضحا لبعض أحداث تحزن
به ، وقد يكون السبب واضحا لديه فلا يؤمن به ، وإنما يحيله
الى شيء خفى لا يعرف كنهه ، وفي كلتا الحالتين لا بد أن يكون
الحدث جليلا في نظره . وذلك ما حمل زينب على أن تقول : ان
الملجأ في مكان منحوس . ولو لم تكن ليلى بين المرضى ما كان
منحوسا ولا شؤما الى الحد الذي وصلت عقيدتها اليه . وأبدا
يستوى النفوس الخفاء أكثر مما يستهويها الوضوح .
ومرت ثلاثة أسابيع وجرت الخفزة من جديد في عود ليلى
المريضة ، وفارقتها علتها ولم يعد لها القضاء سلاحا في هذه المرة
أيضا ، لأمر أراد الله اما سعادة واما شقاء . الا أنه كان في نظر
المرضة سعادة ونعمة تستوجبان الشكر والحمد . وأصبحت
المرأة وقد ضحكت أسارير وجهها الناحل بعد أن أضر بها
الحزن والسهر . وتهامس الخدم من جديد : انها ترى نفسها
سعيدة لأن ليلاها قد شفيت .

ولكن قليلا ما يمر بالخاطر أن الموت قد يكون الى الصحيح
أدنى منه الى المريض ، فقد عاشت ليلى وماتت زينب وتبادلا
الموقف بعد شفاء ليلى بشهرين !

وعجب من في الملجأ فضحك منهم ناس وبكى منهم آخرون .
وبدأ الزمن يلغز ، وتعرضت الأقدار للطفلة مرة ثانية بعد أن

تحطم الزورق الذي عرض لها بنفسه في البحر اللجى .
وجلس بعض الخادmates يسمرون ، فقالت زليخا :

— رحمها الله فقد كانت امرأة طيبة . والثمرة الحلوة دائما
هدف القاطف ، لم يمهله المرض الا ثلاثة أيام ثم ولت مأسوفا
عليها ... أرايتن ليلى يا صاحباتى ؟ لقد بحثت في الوجود
بعينها الواسعتين عن وجه كانت تراه كل يوم وتلقى من
صاحبه البر فلم تجده ، فألهمتها الغريزة أن تبكى دون أن
تعرف أنها تبكى لفقدان حبيب . ثم جاء صباح ومساء ففتشت
وبكت . انها أحببتها دون أن تعلم وحزنت عليها دون أن تحس .
ومن يدري ؟ لعل روحها تجيئها فتشعر بوجودها ، ثم تنظر
فلا تراها ، فتبكى لأنها خدعت أو خطف منها شيء !

فقالت احداهن :

— انا لله !

وجرى دولا ب الزمان وأسدل على ذكر المرضعة ستار من
النسيان ، وفترت العينان الخضراوان عن البحث وكفتا عن
البكاء . وتوارت الذكريات وغابت الحوادث وسارت الأمور
مطرده مستوية كصفحة الماء . ولا يزال خدام الملجأ يروحون
ويجيئون ، وأطفال يدخلون وفتيان يخرجون . ولا يزال بناؤه
رابضا في كنف الصحراء تسبح في أحشائه أجنة كثيرة ،
والشمس تحببه كل يوم في انصباح والمساء ... وكل شيء
لهم يتغير ، غير أن طفلة تدعى ليلى سلخت فيه أربعة أعوام من

عمز لا ندرى ما هو ؟ وفى دنيا لا تعرف ما هى ؟ ووقفت على
باب حجرة الدرس لتدخل منه باب الحياة .
« ترى هل يقوى رأس رق فيه جمال الطفولة ودق فيه
كمال التكوين — على استيعاب ما يقول المعلم ، وعلى احتمال
خشونة التعليم ؟ ... اننا سنرى ! »

القسم الاول
في ملجأ...

أرايتها في حجرة الدراسة في يومها الأول ؟ انها تجلس في
 الصف الأخير لأنها نامية الطفولة ، قوية النظر . وقد وضعت
 يدا بيضاء صغيرة على فم دقيق جميل كأنها تفكر !
 وماذا عسى أن تفكر فيه الا أنها تحاول أن تستكنه المهمة
 التي جيء بها من أجلها وتفهم سر هذا الذي حولها !... ثم
 تابعت الأيام ففهمت المدرسة ، وتوالت الأعوام فأنتت
 بالدرس ، وتجلّى عقلها الراجح كما تجلّى جمالها الفاتن . الا
 أن طباعها كانت تجنح الى هدوء قريب من الذلة ، دان من
 الانكسار كلما تقدمت بها السن ، وغشى بقاء عمرها المحدود
 سحب من مزاج سوداوى منقبض اشتهرت به بين صاحباتها
 ومعلماتها .

ولو أتيح لك أن تجلس ساعة من ليل في حجرة من حجرات
 الملجأ الواسعة لتشاهد اجتماع تلميذات صغيرات هناك —

لرأيتهن مكبات على العمل تحت أضواء المصاييح وفوق ظهور المناضد ، وقد جلسن جماعات ووحداً وكلهن يعملن . ويندر لك أن ترى طفلتنا في زمرة جماعة ، ولكنها في هذه المرة رابعة ثلاث جلست بينهن وعلى وجهها كثير من الاشرار وقليل من المرح وشيء من التفاؤل حفزها الى أن تخرج عن طبعها . فقالت لمن حولها بصوت هامس حتى لا تسمعه « المراقبة » :
— أخواتي ... من تستطيع منكن أن ترسم لى أما ترضع طفلها ؟

سؤال عجيب واقتراح غريب لا شك أن لطبيعة الأنوثة وكامن الأمومة دخلاً كبيراً فيه .
فعلاً ثلاثتهن وجوم عجيب ، وأظهرن عجزهن في ضم شفاههن واتساع عيونهن . وقلن لها :
— ما فينا من نستطيع . هل تستطيعين أنت يا ليلي ؟
قالت :

— بلا شك .
ثم جعلت تخطط في ورقة أمامها كل ما راق وحلا .. أشياء متداخلة متشابكة أحس قلبها الصغير أنها تصور أما تفيض الحنان على وليدها .
وكثر التهامس بينهن وكن بين معجبة وناقدة ، وارتفع الصوت الى أن بلغ أذنى المراقبة في طرف الحجرة الآخر . فقالت وهي منصرفة إلى طرف بين يديها :
— ما هذا الصوت يا بنيات .. انصرفن الى أعمالكن .

قالت احدى الزميلات :

— لست أنا يا سيدتي ... انها ليلي ... تريد أن ترسم لنا
أما ترضع طفلها .

قالت المراقبة في عجب :

— ليلي ! أتكلمين يا ليلي ؟

ثم سارت اليهن وألقت نظرة على ما بين أيديهن وأخذت
الورقة منهن وسارت تتمم بصوت لم تسمعه الا طفلتنا ، لأنها
كانت في فرع وانتباه ، قالت :

— ليت أمهاتكن أرضعنكن ! اذا لاستراح الناس من هذا
العناء !

قالت ليلي بجرأة وتشوق :

— ولماذا لم ترضعنا أمهاتنا يا سيدتي ؟

فوقعت في الحرج والتفتت اليها من جديد وأنعمت فيها النظر
فأدركها حنان ، وأحست أسفا على ما بدر منها فمالت عليها
وابتسمت لها وقالت :

— لأنهن متن يا ليلي .

قالت :

— اذا فمن التي أرضعتني بعد أمي وأين هي ؟

فقالت :

— سمعتمهم يقولون ان التي أرضعتك كانت تدعى زينب
وقد ماتت ،

فرددت ليلي في دعر وعجلة :

— يا الهى ! أكل أم ترضع طفلا تموت بعد ارضاعه ؟ ولماذا
لم تموتى يا سيدتى المراقبة ؟ أليس لك أولاد أَرْضَعْتَهُمْ ؟
فضحكت فى تشاؤم من هذا القياس الغريب ، ثم انصرفن
جميعا الى أعمالهن .

وعلق بنفس ليلى بعد ذلك كثير من التشكك حملها على أن
يزيد تفكيرها فى نفسها كلما زاد عمرها عاما .

ولو كنت حاضرها فى درس من دروس الدين حين بدأ المعلم
يكشف لهن عن وجود الله ، فقال كما يقول المعلمون :

— ان الذى صنع هذا الباب النجار ، والذى بنى هذا البيت
البناء ، والذى طرق حديد الشباك حداد ، فكل شئ لا بد له من
صانع ، وكل موجود لا بد له من موجد .

والسما موجوده ، والأرض موجوده ، ونحن موجودون
فلا بد لنا من خالق ... هذا هو « الله » .

لو كنت حاضرها لسمعتها تقول فى استطراد وتؤدة وثقة :

— وهو الذى خلق الشجر وأطلعنا كما يطلع الشجر ...

— هو الذى أطلع الشجر وأوجدنا ... ولكن من أب وأم .

— وأين آباؤنا وأمهاتنا يا أستاذى ؟

— ماتوا جميعا ؟

— الأتينا جئنا هنا ؟

فيقول المعلم :

— نعم ...

ثم يقول فى نفسه :

ب لم يموتوا لأنكم جئتم هنا ، ولكنكم جئتم هنا لأنهم ماتوا . ماتوا وان كانوا أحياء ، فلکم جميعا رحمة الله !
وهكذا بقيت تسائل الناس طول مقامها عن الماضي المجهول لهذا الجمع المحشود . وتحل في قلبها عقب كل سؤال ذرة من لوعة وحسرة ، حتى تجمعت الذرات فامتلا قلبها بالحسرات .
وقد يكون هذا الذكاء وذلك الهدوء سلاحا في الحياة لتلك الهفوة التي غافلت الشريعة ، والتي قضى الله أن تكون مبرأة مطهرة بعد تكوينها ووجودها كما يطهر الجلد بالدباغ . ولكن ماذا عسى أن يكون لهؤلاء الفارغات من المواهب اللائي هن مع ليلي في ملجأ واحد ؟
لابد أن يعاملهن قانون المجتمع بما يعامل به الفارغات من المواهب من غير بنات الملاجىء ؛ لأنهن مثلهن مبرآت مطهرات .

أترى أن تعرفها في الثالثة عشرة من عمرها ؟ إذا فمد قامة
الطفلة التي دخلت الملجأ في الصباح الباكر - الى قدر يملأ العين
ولا يفوت الحد . واجعل في هذه القامة قضا ونحافة ، وأضف
عليها ليونة ورقة ، واجمع ما شئت فيها من أنوثة ونضج
واجعلهما الى الاحتشام والانكسار والهدوء والتوقر . ثم صور
وجهها مستديرا ناظرا دائما الى السماء كأنه يفتش عن أناس كان
يجب أن يوجدوا فلم يوجدوا في الأرض ، وعينين طال هدهبهما
واتسعتا فشغلتا من الوجه أكبر ما يكون . وضربت خضرتهما
الى خضرة البسلة ، وجيئا واضحا ، وشعرها أصفر سهلا
مسترسلا يوارى دائما ظهرها من خلف ؛ لأن وجهها الى السماء ،
وفما دقيقا منطبق الشفاه نزر الكلام حلو التبسم .. ثم أسمع
أذنك صوتا هادئا رزينا غير صخاب ولا متدفق لكى تعرف
صوتها ، وانظر الى فتاة غير سريعة المشى كأنها سائرة تفكر أو

برغبة في الرجوع - لكنى تعرف مشيها . كأن هذا الذى بها
 ناشئ من ترددها على أعتاب الحياة يوم ميلادها .
 وإذا نظرت اليها شعرت أنها ضجرة بك ، أو حدثتها
 اختصرت في الكلام . يحلو لها أن تفكر أكثر من أن تتكلم ،
 وأن تنعزل أكثر من أن تتصل ، وأن تراقب مصاير الناس أكثر
 من أن ترسم لنفسها مصيرا ... ولو كانت ربان سفينة لحطمت
 المجذاف والشرع والسكان ؛ لأنها مستسلمة للأقدار وهي
 مع كل هذا تخشى الناس ، لأنهم مصدر بلواها ولا بد أن تحيا
 في موطن البلوى .

هذه هي فتاتنا بعد ثلاثة عشر ربيعا قضتها في دنيائها
 الصغيرة ، وأصبحت بعدها في برزخ بين وجود ووجود . فخیل
 اليها أنها في مكان ليس بالملجأ ولا الدنيا ، وألقت بناظرها
 القويين الى أعماق الغد الغامض ، فلم تر شيئا الا الظلام ،
 فردتها كاسفة البال مضطربة الحال . واعتقدت أن الدنيا
 امتحنتها بايجادها يوم ولدتها أمها ، فاجتازت هذا الامتحان
 لأنها ولدت وعاشت ، وسخر الله لها من حمى طفولتها من عسف
 الحوادث . وذلك شيء طبيعي ، فكثيرا ماتحمى الطفولة نفسها ،
 وكثيرا ما يكون في الضعف قوة . ولكن ... ترى هل تجتاز
 الامتحان يوم تلج باب الحياة مرة أخرى وهي فتاة كاملة النضج
 تامة الأنوثة ؟ انها ضعيفة أيضا في هذه المرة ولكن شيئا جديدا
 أضيف الي ضعفها ، قد يكون مصدر خير وقد يكون مصدر شر .
 وتناول حديث الأتراب هناك أشياء خارجة عن جدر الملجأ ،

(لقيطة)

وتبدل المحور الذى يدور حوله السمر والذى يطوف حوله الخيال . وأبدت المستهترات من الفتيات عدم اكتراث باليوم الذى سيخرجن فيه ، وزعن أن الله سيعفيهن — على الأقل — من سجن بلا ذنب ، من دير بلا ترهب ، وأن فى ميدان العمل مجالا ، وفى الأرض متقلبا للكريم وسعة .

وجلسن للغداء فقالت احدهن :

— ما بالك يا ليلي طويلة التفكير كثيرة الوجوم ؟ وكلمة قرب اليوم الذى ستودعين فيه هذا المكان تضاعفت بلابلك وتراكت أحزائك ؟ أنت أول فتاة ستخرج ؟ لقد تركنا قبلك كثيرات وكثيرات ، فما رأيتهن أبدا فى مثل حالك . عفا الله عنك يا أختاه وأعفاك مما أنت فيه !

قالت ليلي :

— ان ورود الأول مواطن الهلاك لا يشجع الثانى بل ربما أفزعه . وماذا يعنينى اذا أنا مت أن أناسا قبلى قد ماتوا أو أنه لم يمت قبلى أناس ! « ولن ينفعكم اليوم اذا ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون » .

— ألم يضعوا معك شيئا تستقبلين به الدنيا يوم تخرجين من الملجأ كاللاتى سمعنا عنهن من الفتيات ؟

فمراها كثير من الحجل وسكتت عن مضغ الطعام ، وأرسلت بصرها الى الخوان وقالت :

— علم ذلك عند الله ولا أريد أن أعلم عنه شيئا .. انى اذا سألت عن هذا كنت حسنة الظن أو كنت مخدوعة ... ليت

هؤلاء الناس وقفوا منى موقفا سلبيا فلم يمدوا يدا بخير ولا شر ! أياصلى المال بحياة تقطعت بى فيها الأسباب ، والتسب يا أختاه لا يباع ولا يشتري ؟ انى لست برمة بشيء ولكننى أزن الحمل قبل أن أحمله ، وان كان حتما على أن أنهض به ، فسأحملة ثقيلًا أو خفيفا . ولن أفر منه وان أنهض ظهرى وخارت من فداحته قواى .

— وان كنت ستحملين الميء فلم لا تضحكين ؟ فلان تموتى ضاحكة خير من أن تموتى باكية . ولم كل هذا يا ليلى ومعك جمالك الفاتن وعقلك الرجيج ، أعطينى جمالك وهينى عقلك ثم اقلنى بى فى الجحيم وأنا أعدك بأن أعيش . فضحكت فى مرارة ، وعبثت بالسكين فى يدها ، وأرسلت اليها ناظريها الأخضرين طويلا ثم قالت فى هدوء :

— هذا موطن العلة ومناط الفزع ومشار الهموم . لست الجمال شىء يطرح اذا لاطرحته ، ولو اطرحته ما تبدل موقفى من سيئ الى حسن . غير أننى بذلك أعفى من اتباع مزعج ، لأبلى باهمال مميت .

ان الجميلة والدمية منا معشر اللقيطات محتاجة الى حماية المخلص الأمين : فهو مع الأولى يحمى جمالها من أن يزل ، ومع الثانية يحمى دمايتها من أن تهمل . وهل هناك على الجانب الآخر من الحياة رجال يحملون هذا القلب ، ويتحلون بذلك الضمير ؟ ان أمهاتنا جميما بلبن بغير هذا الصنف من الرجال الذى نعتد عليه الآمال ، فأخطأ وفردن من الخطيئة ، وحملنا

وحدنا رزءها. وسيكون الناس منا فريقين : فريق مؤاخذ مثقل
يقف في طريقنا ويسألنا : من أين جئتن والى أين أتن ذاهبات ؟
وفريق مخفف مهمل يتفضل علينا ويقول : دعوهن يمررن
ويحملن أوزارهن وحدهن . نحن في شأننا وهن في شأنهن !
أما المعين المسعد ، المتسامح السهل الكريم المواتى : فقد عز
حتى على غير اللقيطات !

فساد الجميع صمت ، وتناثرت هنا دمة ، وانبعث هناك
زفرة ، واختلجت قلوب كثيرة بالخوف من مستقبل مجهول ،
وقمن عن الطعام وكل منصرفة عن أختها الى نفسها ، فترجع
الى الماضى وتقول : ليت يوما ولدت فيه قص من شريط
الزمن ! ثم تفكر فى المستقبل وتقول : أو يوما سأخرج فيه
يقص من شريط الزمن !

ومر شهر على ذلك الحديث وتلك الحوادث ، وسرت فى
الملجأ حركة كثيرا ما تسرى فيه ، لأن فتاة توشك أن تغادره فى
هذا اليوم ... ولم تكن سوى ليلى .

كان ناظر الملجأ متجها اليها وهي واقفة أمامه ؛ لأنه كان معجبا بها محبا لها فقال لها :

اليوم آن لك يا بنيتى أن تخرجى من هذا المكان الى الدنيا .
وقد هيا الله لك ظرفا حسنا فعطف نحوك طيبا كبيرا رقيق.
القلب كان يتردد على الملجأ فى الحين بعد الحين ليعود مرضاه
وينودنا بنصائحه ، فلما رآك أحب أن يؤثرك بفضله ويختصك
بعطفه ويضمك الى رعايته ، ويشرف على تعليمك فن التريض .
فى مستشفى الخاص . ذلك يا بنيتى هو الدكتور ك... وها هو
ذا آت ليأخذك ، وسمعت غنية عن التعريف .

ولقد شكرته بما لك على من حق ، واستوصيته بك خيرا ،
وما أظنك الا راضية بما اخترنا لك متفائلة بما سيلقاك . فقالت :
— شكرا لكما يا سيدى . اننى موافقة .

وانضم كثير وكثيرات ممن حول الناظر ومن يعرفن ليلى ،
فنجسجوها وبثوها أملهم بأنهم يرقبون لها التوفيق والنجاح .

ثم تسلمت ليلى ما كان يحتفظ به لها الملجأ .. أتذكر ما هو ؟
 خصلة من شعر أصفر ، جعلت سوارا ذهبيا على معصمها الأيمن ،
 لكنه سوار رخيص لا يشتري ولا يباع . فتسلمتها بأنامل
 مضطربة وقلب حائر ، ودستها بين طيات ثوبها ومشت مشيتها
 غير السريعة ، كأنها ماشية تفكر أو راغبة في الرجوع .

ترى ماذا يدور في هذا الرأس الجميل ، وكيف تنظر ليلى الى
 شعرات أمها الصفر ؟

أقول : ليتنى أراها ! أم تقول : ليتها ما رجلتها ! ويفيض
 قلبها حنانا أم يفيض قلبها قسمة ؟

انها كانت ذاهلة عن نفسها وهى أقرب شيء اليها ، وأكبر
 الظن أن عاطفتها نحو أمها في هذه الساعة لم تكن مستبينة .
 ثم كرت نحو صاحباتها تودعهن آخر مرة . وما كادت تصل
 اليهن حتى نوديت من جديد لتقابل الناظر ، فعجبت وعجبن .
 ولما رجعت اليه ودخلت عليه رأته ضاحك القسومات متهلل
 الأسارير ، فوقفت بين يديه ولم تسأله عما يريد ، ولكنه قال
 بكلمات سريعة فرحة :

بسم اسمى يا بختى ... اسمى يا ليلى ... قد جاء كل شيء
 في الوقت المناسب فاحمدى الله . ووصل الى بعد أن خرجت
 رسول من لندن سيدة كريهة يحمل سوارا ذهبيا تبرعت به لأذكى
 فتاة في الملجأ ليكون لها رأس مال وعونا على الزمان يوم

تخرج . فخذيه يا بنيتي بارك الله لك فيه ... ثم وقعى على هذه الورقة .

ولم يكن أحد ممن حضر ينتظر شيئا الا أن تمسك ليلى القلم لتوقع به ولكنها ظلت جامدة صامتة ثم أقبلت عليه تقول :
— سيدى الناظر : أهذا هو الذهب الذى قال لنا عنه المعلم :
انه معدن نقيس رنان ؟ ... لقد عرفته ... شكرا لك فلا حاجة لى به ...

ثم اغرورقت عيناها بالدموع وقالت :
— انه لا يقوى على وصل آصرة بينى وبين حيوان خارج هذا الملجأ . أنا لن آخذ شيئا أكثر مما تركته لى أمى ، لا أنا وارثة ولا مورثة ! اجعله للتى تلينى ياسيدى ودعنى أوقع على هذه الورقة .

ففعلت وفعلت ، وفقر الجميع أفواههم ، وسمموها تقول :

— طاب يومكم !

فقالوا :

— طابت حياتك !

ثم كرت من جديد نحو صاحباتها تودعهن ، فقلن لها قبل كل شيء :

— خيرا ... لم دعوك من جديد ؟ .

قالت :

— لا شيء ... انه سوار ذهبي .
فقاطعتها :

— لعله جميل ! أين هو يا ليلي ؟
فقصت عليهن القصص ، فقلن لها :

— ترى أنت فيلسوفة ؟ أم يا ترى أنت مجنونة ؟
وكان الموقف باكيا بين الأتراب حين آذنت أجمل فتاة بوداع
الملجأ .

وكانت قبلات ... وكان دعاء وتساؤل . ثم تلفتت حولها
لتلقى نظرة أخيرة على مهد طفولتها ومدرسة تعليمها وملعب
صباها استرجعتها مخضلة بالدمع . ثم سارت والكل حزين كأنها
كانت كافلة الجميع . فقالت إحدى المتطرفات لتخفف من جفاء
الموقف :

— ليلي ... أتم السابقون ونحن اللاحقون .
فابتسمت في ألم :

— لم تفعل جديدا يا أختاه . ان الموسيقى تزف العروس الى
الحدر وقد تزفها الى القبر .. الوتر واحد والنغم يتغير ؟ وداعا
جميعا ...

ثم سارت وسرن . وصر باب الملجأ الحديدي الضخم وانفتح
لتخرج منه فتاة دخلت طفلة منذ ثلاثة عشر ربيعا ، ثم صر ثانيا
وأغلق وأطل من بين قضبانه الحديدية المتقاربة وجه نوبى قال

صاحبه بلهجة نويية : « مع السلامة » ... وكانت آخر كلمة سمعتها من هناك !

ولا يزال ملجأ ج ... رابضا في كنف الصحراء تحييه الشمس مرة في الصباح ومرة في المساء ، ولا يزال أطفال يدخلون ويخرجون ، وخدمه يروحون ويجيئون ... وكل شيء فيه لم يتغير ، الا أن ليلي لم تعد فيه .

القسم الثانى
فى مستشفى الدكتور ك... .



في مستشفى الدكتور ...

مستشفى الدكتور ك ... الجراحى فى حى هادىء من أحياء
القاهرة تطل أروقتة الجميلة وشرفاته الواسعة على حديقة
صغيرة ، يتمتع بها الناقهون أبصارهم كلما بدا لهم ، وتحمل اليهم
العطر والشذا والنسيم . وليس يقصد هذا المستشفى الا
القادرون من الناس ، فيقل أن تجد الشارع أمامه وقت الزيارة
خلوا من السيارات والمركبات الخاصة . وتستطيع أنت بعد ذلك
أن تعرف ، ولو على وجه التقريب ، ما فيه صاحبه من سعة
حال ، وما يدره عليه من مال .

والدكتور ك ... رجل قارب الخمسين من عمره ، ليس
بالطويل ولا القصير ، غير منظم الجسم ولا واضح القمات ،
تخالط سمرة صفرة ، ويدل منظر ملامحه على الجمود ، والتردد ،
ولكنه طيب القلب محب للخير واثق بالله . الا أنه يعطى من قلبه أكثر
منما يعطى من ماله ، فتودده وحنانه أيسر عنده من القرش
وأرخص من الجنيه .

وهو بعد كثير الاستشارة حريص على رضا زوجه ملق اليها
بزمam نفسه وقياد أمره .

وفى مستشفى هذا الطبيب جرت فتاتنا شوطها الأول من
أشواط الحياة ، فانضمت بليلى قطرة واحدة الى نهر عظيم
يجرى من بدء الخليقة الى أن تنتهى الخليقة ، ولكن تلك القطرة
لم تندمج فى تياره ولم تتصل أبدا به ، كأنها لم تكن من
طبيعة الماء .

قال لها الدكتور ك ... :

— هذا هو المستشفى الذى ستتلقين فيه أصول التمريض .
يا ابنتى ، ونحن هنا نحرص على راحة نزلاننا ؛ لأنهم يدفعون
الينا بأجور كبيرة . فأرجو أن تحققى ما أتوسمه فيك من خير
واخلاص . ولما كنت لا تملكين اليوم مسكنا تأوين اليه ، فقد
جعلت لك سريرا تنامين فيه الى أن تعثرى على مسكن ... بقى
شئ آخر : هو أننى جعلت لك مرتبا قدره ثلاثة جنيهاً ، وأنا
مستعد لأن أزيد هذا القدر فى اليوم الذى تبين فيه صلاحيتك
ويظهر فيه اجتهادك . فهل يرضيك هذا المبلغ ؟

قالت بانكسار :

— ثلاثة جنيهاً ؟ هذا كثير . وستكون راصيا عني ان
شاء الله .

فقال :

— حسن . اذن تمرين غدا على كاتب المستشفى لتأخذى منه
قرضا على مرتبك لشراء ما تحتاجين من ملابس وأثاث

تستطيعين الآن أن تذهبي لترى عمك ، ويمكنك الاعتماد على
احدى زميلاتك في قضاء شئونك الخارجية حتى تنهض بنفسك
... أرجو لك حظا سعيدا !

ووقع بصرها في ذلك المبنى الأنيق على محفات تجيء وأخرى
تروح ، ومقاعد متحركة تنقل المرضى من مكان الى مكان ،
وأناس يسرعون لأنهم في خدمة أناس - فرأت قدرا مشتركا بين
مكان تركته وآخر دخلته : تركت وراءها ضعفا من طفولة وفقرا
من نسب ، ورأت بين يديها ضعفا من علة وفقرا من صحة .
فقالَت تحدث نفسها : ليت شعري أهذه هي الحياة ؟

« لا تعجلي يا ابنتي ! فأنت لا تزالين في يومك الأول ، وإن
كان عمرك ثلاثة عشر ربيعا أو يزيد ... وقد ادخرت لك الدنيا
ما لم تسخره لفتاة ! »
وتهامس من هناك :

« لقد جاءت زميلة جديدة ... أوقعت عليها أبصاركن انها
جميلة ! »

ولا بد أن طبيعة المرأة قالت في نفس كل منهن : « ليس
لاحدانا بعد اليوم حق في أن تدعى لنفسها الجمال . »
وفي اليوم الثاني كنت تراها مكبة على مكتب الكاتب لتوقع
أنها تسلمت عشرة جنيهات ، وأمسكت بالنقود للمرة الأولى :
- أهذا هو المال ؟ ذلك الذي شغل النفوس وأذل أعناق
الرجال ! لقد عشت في الملجأ بدونه وما أحسست أنه ضرورة .
ولكن من يدري ؟ لعله ضروري لى في هذا المستشفى .

(لقيطة)

ثم مشت الحياة هادئة رتيبة متشابهة الاصبح والامساء ،
 بعد أن استبدلت ليلي بثوب الملجأ الأبيض ثوبا أبيض ثانيا لكنه
 من نوع جديد . وأخذ ذلك الجسم النحيل ينتقل بخفة ورشاقة
 في طرقات المستشفى ويتنقل كالنحلة بين حجراته ، وقد كور
 الشعر الذهبى تحت القلنسوة البيضاء . وفاض حنان من نوع
 جديد على المرضى هناك ، وفاض جمال من نوع جديد على
 المرضى هناك أيضا . وفنيت في نفوسهم نفس لم تجد لها قريبا
 تقنى فيه وخالت أن حياتها من ذهب مسروق ، فبدأت تبعر في
 بكتلتي يديها ذات اليمين وذات الشمال ، وتصل به من يستحق ومن
 لا يستحق ؛ لتقربه من اليوم الذى ينفد فيه ! !
 وكان العمل ملهاة عظيمة لها ، فزاد السكون في طبعها
 المستوحش ، وقويت العزلة في نفسها المنفردة ، واستحال ما في
 قلبها من قمة على خلقها الى رحمة في أناملها جرت على الناس .
 كأنها تكفر دون أن تقصد عن سيئة جناها غيرها ، وكأن الثمرة
 حملت خطيئة الشجرة !

قالت أحلام الممرضة لكبيرتهن :

— ان زميلتنا الجديدة شاذة الطباع غريبة الخصال : هي أبدا صامته لا تتكلم الا اذا سئلت ، كأن أبويها علمها الصمت بعد أن علمها الكلام . وأعجب ما فيها أنها فائية في عملها الى حد يستوقف النظر ، ويلوح لى أنك لقتتها دروس التمرض بسرعة في هذه المدة القصيرة يا سيدتى الرئيسة .

فقالت :

— انها ذكية يا أحلام . وأضيف الى معلوماتك عنها شيئا جديدا هو أنها متشائمة كأنها تحمل بين أضلاعها سرا :
قلت لها مرة وأنا أعلمها كيف تحل اللفائف وكيف تربطها وكيف تنظف الجراح : هذا هو الصيديد ... انه شئء يجب أن يزال ... أتعرفين الصيديد يا ليلي ؟
وأقسم أننى كنت أداعبها لأبسط من نفسها المتقبضة فابتسمت لى وقالت : « نعم أعرفه ... وقد رأيته كثيرا الا أنه

من نوع غير هذا ! » ثم مدت بعد هذا يدا لطيفة الأنامل بدأت
تعمل في دقة وحذر . فقلت لها : « حسن ما تفعلين ... أرجو
لك حظا سعيدا . » فقالت : « في أن أطيب الجراح ! »
وبعد ، فما يعيننا يا فتاتي من أمرها شيء . اذ المستشفى يريد
منها حسن عمل ، ونحن نريد منها حسن معاملة . أما سرها فهو
لها ، وأما الفضول الذي يملأ نفسك فلك أن ترضيه اذا استطعت
الى ذلك سيلا ، وأظنك ستستطيعين .

لم تكن ليلي تعد أمر نسبها سرا من الأسرار ؛ لأنه شيء
سيكشف عنه الدهر في يوم من الأيام . ولم تضعه من نفسها
موضع التصون ، ولكنها لم تجعله أيضا على طرف لسانها تلقى
به الى من يشاء ومن لا يشاء ؛ لذلك لم يكن أحد من الناس
يلاقى كبير عناء في الكشف عن أمرها ، وإن ظننت زميلاتها فيها
غير هذا الظن . كما أن الدكتور ك ... لم يشأ أن يقول : انها
لقطة ، أو ربما ألقى بهذا الخبر بقصد أو بغير قصد الى أحد من
الناس لم يكن وسيلة صالحة لنشره بين من كانوا هناك .
وفي المساء دخلت أحلام على فتاتنا حجرتها متصنعة أنها
حزينة مهمومة ، واقتحمت عليها عزلة النفس وعزلة المكان
وقالت لها :

— طاب مساؤك يا أختي ... لا عليك فأت في راحة هذه
الليلة . وأما أنا : فلا على أيضا ؛ لأن القسم الذي أراعاه يغط في
نوم ويسبح في أحلام ... ما أصعب المهمة التي فرضها علينا
العيش ! انها اللقمة يا ليلي ، انها اللقمة ... يهب لها الفقير

جسمه وعقله حتى ينقلها من يد غيره الى يده ، ولو كنا من بنات الأغنياء ما عرفنا الكد ولا النصب ولا عايننا من دهرنا ما نعانى .

تعالى نلق نظرة على البيوت من حولنا ، ونقف قليلا في هذه الشرفة ...

انظري ! هل ترين هذه النافذة المضيئة ؟ تلك فتاة جالسة ولا شك أن التي بجوارها هي أمها ... انهما تتكلمان باهتمام بالغ ! أتستطيعين أن تخمّنى يا ليلي موضوع حديثهما ! أنا أقول : انه في رسم مستقبل . هذه كفها تعلو وتهبط لأنها تؤكد بها الحديث ، وبنتها تطرق كأنها خجلة ، وتبتسم كأنها فرحة ، ويطول بها السكوت كأنها تحلم وهي يقظى !

ثم سكنت قليلا . ولم تكن ليلي في مثل شغل زميلتها ولكنها كانت في شغل بما ربط الأم ببنتها والبنت بأمها ... كانت في شغل بالأمومة الواضحة والبنوة المرعية ؛ لأنها حرمتها ! وعادت أحلام فوصلت الحديث :

— ما أجمل منظرهما ! ليت أمى كانت قريبة منى ! انها هناك في أطراف الوجه البحرى ولا أراها الا في الأعياد . وأنت يا ليلي ، لعل أمك قريبة منك ولملك لا تعانين مثل وحشتى ؟ (قالتها وكأن نفسها تذوب ألما)

فقالت ليلي في ذهول :

— انها أبعد مما تظنين ... انها هناك ... في أطراف الوجه

القبلى !

— فى أطراف الوجه القبلى ! لنا الله فكلنا غريبات ... أنت .
من أسوان ؟

— نعم من أسوان ، وبالقرب من الخزان .
— وماذا أتى بك الى القاهرة ؟ ان البعد شاسع ؟
— حملنى الفيضان !

— انك ترحين . أنا أعرف أن أهل أسوان تغلب عليهم
السمره ، ووجهك يا ليلى ليس عليه السحنة الاقليمية
الأسوانية . فمن أين أنت على التحقيق ؟

— من أسوان ... الا أن ماء الفيضان غسلى يوم حملنى
فابيض وجهى . وأثر فى عيني « الطحلب » من طول مكثى فى
الماء فاخضرت عيناى . وأثر « الغرين » فى شعرى فاصفر بعد
سواد ... أبعد هذا ترين فى أمرى عجيبا !

وضحكت فى هدوء ، وأغربت زميلتها فى ضحكة رثانة .
وصر جرس فى حجرة مريض ، فأدركت أحلام أنه فى قسمها ،
فأفاقت من ضحكها والتفت الى ليلى وهى تسيير وتقول :
— سأرى ... وسأعود .

ثم خرجت فقالت ليلى فى نفسها :
لابد أنها راجعة لتكمل التحقيق . قلله ما يلقي الناس من
الناس ! ان ثمرة التفاح من شجرة التفاح ، وثمره الرمان من
شجرة الرمان ، وليلى من أب وأم . وهل يعينهم خين يأكلون
تفاحة أو رمانة أن يعلموا : أين غرست شجرتها ومن الذى
غرسها ؟ هم يشغلون بطعمها لا بزمانها ولا مكانها . فلم

لا يجرون على هذا القياس فيلهم حاضري عن ماضى ،
ويشغلهم شخصى عن أبوى ؟

لو أننا ولدنا أنفسنا لألغينا ولادتنا ، فمن فعل المستحيل مرة
فعله مرة أخرى ، فقد أخرجه من دائرة الاستحالة الى دائرة
الامكان . ولو وقف بنا على عتبة الوجود قليلا لنقرأ صفحات
دستوره ، ونرى قوانين معاملاته ، ثم خيرنا بين الدخول
والنكوص لاخترنا أن نرجع الى حيث العدم ، لا أن ندخل
الى حيث الشذوذ .

ولدنى مجهولان ثم كلفانى أن أعرف الناس من هما ؟
ولا يفتر الناس عن أن يسألونى ، وهم هم الذين زوروا لى
أبا يوم استقبلونى ... لقنوني شهادة الزور ، ثم استخلفوني
قبل أن أشهد !

ثم عادت أحلام مبهورة الأنفاس من كثرة الضحك ، وأخذت
تقول بصوت متقطع :

— أتدريين ما الذى حدث يا ليلي ؟ انه مريض ظريف عاودته
الحمى ... ولما دخلت عليه أنشأ يقول كأنه يناجى فتاة : اغفري
لى ... أنا أجبك ... لا أستطيع أن أعيش بدونك .

فنضحت جبينه حتى أفاق ولم أقل له شيئاً حتى
لا يخجل ... ترى أمراض من الحب ، أم أحب من المرض ؟ ان
الحب شئ متعب ... هل أحبيت يا ليلي ؟

ولا تسل عن برمها وضجرها بهذا السؤال ، ولا عن برمها

وضجرها بالسائلة . ولكن كان عليها أن تجيب لأنها تتودد
الناس . فقالت :

— نعم أحببت .

ففتحت أحلام عينين ظافرتين واعتقدت أن الحظ واتاها
فكشفت عن سرها الدفين — وقالت :

— أحببت .. أهذا صحيح ! ترى من ذلك السعيد الذى فاز
بوجهك الجميل وقلبك الطاهر ؟
فقالت :

— أحببت جميع الناس ، ولم أحب أحدا من الناس حتى
أبوى !

— ترى أنت جاهلة أم متجاهلة ؟

— صدقنى يا أختاه .

فقالت كأنها تسخر :

— يا لها من صورة جميلة واضحة عنك يا لىلى : أنت من
أسوان من جانب الحزان ... حملك الفيضان وأثر فى وجهك
فابيض ، وفى عينيك فاخضرتا ، وفى شعرك فاصفر . وبعد ،
فأنت أحببت جميع الناس ولم تحبى أحدا حتى أبويك !
ما هذا اللف والدوران ، وما هذه الطرق الملتوية ؟ افسحى
من صدرك للناس يفسح الناس لك من صدورهم ! لا تحزنى .
سأجيب بنفسى عن السؤال الذى سألته لك .

وتكلفت الرقة واستعادت الرضا ، ثم شرعت تقول :

— ما الحب يا لىلى ؟ ... أترين فيه شيئا شائنا أو غير

طبيعي ؟ انه تفتح النفس للنفس ومناجاة القلب للقلب . وكل
شيء في الوجود يحب شيئاً : فالزهر يخالف بين ألوانه ليستقط
عليه مختلف النحل ، والزمان يأتي بربيعته ليشر أهله بالرضا
والسعادة ، وليكفر عن برد شتائه ووقدة صيفه . وكل راقص
في الوجود غمرته نشوة الحب وكل مغرد في الحياة غمرته نغمة
الحب . فهو في دم الأحياء وفي طبع كل موجود !
وأنا ... قد أحببت ... أحببت ابن عمي وسيخطبني الى
أبى ، وأن أبى ليرحب به .

ثم استولى عليها الموقف فاستطردت :
— آه لو رأيته يا ليلي ! انه وسيم جميل ، مرجل الشعر
براق الثنايا ، حليق اللحية والشارب ، أئيق ، ظريف ، ساحر
الكلام !
فقال ليلي :

— وما دمت قد أحببت أفيجب أن أحب ؟
— تحبين ؟ قلت لك يا ليلي : انه شيء غير شائن . تقى بى
واتخذيني أختاً لك ، ودعينا نتقاسم الآمال والآلام ولا نثقل
علينا الدنيا .

— اذا كنت تريدني أن أحب فقد أحببت ... أو أنا أحب !
— حسن . لقد قاربنا أن نتفاهم .
ومالت على كرسيها وألقت اليها سجعها وقالت وهي تبسم
في سرور :

— حدثيني ياليلي عن حبيبك وسأزيدك الحديث عن حبيبى .

— أحببت غير ابن عمي : ليس فتى ولا وسيما ولا جميلا ،
غير مرجل الشعر ولا واضح القسما ، ولا هو أبيض وانما
هو أسمر يضرب الى الصفرة ، غير براق الثنايا ، حليق
اللحية طويل الشارب ، ليس بالأنيق ولا عهدت في كلامه
سحرا !

— لعله شيخ فات الأربعين !

— هو ما تقولين .

فقالت في سخرية لتحملها على الصدق :

كأنه الدكتور ك...!

— وهل في هذا عجب : رجل يرعى عيشي ويجوطنى من
الزمان ... أنا لا أعرف للحب معنى غير هذا .
— معذرة فقد كنت مخطئة ... ليس حببي الشاب الذى
حدثتك عنه ، انه رجل آخر . أتعرفين من هو ؟ انه أبى ...
أنا لا أنام الليل من هجره .

ثم ضحكت لتمحو ما عساه أن يكون آلم صاحبته .
ووقف الحديث بين الفتاتين عند هذا الحد ، وأصبحت عطلة
الأسبوع ، فرغبت أحلام الى ليلى أن تخرجها معا فوافقت ليلى ،
لأنها تريد أن تساعد في شراء بعض الملابس والأثاث ، وأن
تفتش معها عن غرفة لتسكن فيها .

وامتد بهما السير ، وأخذت أحلام تعلق على كل ما يصادفها
في الطريق شأن فتاة موهلة في المرح مطرحة للاحتشام ، واثقة
من جاذبيتها وان لم تكن جميلة ، وليلى منصتة ساكنة ، أو

باسمة موافقة . وسادت بينهما روح من الزمالة غير قوية ولا ضعيفة .

غير أن ليلي كانت محتاجة إليها حتى تفرغ من شؤونها ثم تعود بعد ذلك الى عزلتها التي ألفتها - ان شاءت .

ووقتاً على دكان أثاث قديم ، اختارتا منه سريراً صغيراً ومنضدة وكرسياً ومرآة - دفعت ليلي ثمنها ثم تركت كل شيء الى أن تعود فتقله .

وبعد دوران في الأحياء ، ومساءلة الببدال والكواء ، وجدت حجرة ليلي .

حجرة في الطبقة الرابعة فوق سطح المنزل الواسع بناها الباني وحدها لساكنة خلقت وحدها .

لها شباك واحد يطل على الشارع وفي اتجاهه الباب . ويأخذ نظر المطل من ذلك الشباك أول ما ينظر ، بيت كبير يزيد طبقة عن البيت الذي ستسكنه ليلي .

قالت صاحبة المنزل لليلي وهي امرأة عجوز مات عنها زوجها وترك لها بنات تزوجن جميعاً وتركها .

- أيسكن معك أحد يا بنيتي ؟

فقالت :

- لا .

- ومن تكون هذه الفتاة التي معك ، أمي أختك ؟

- ليس لي أخوات ... انها أختي على كل حال ، وسأسكن

عندك وحدي وليس معي أحد ، أهنالك مانع يا أماء ؟

— لا لا يا بنيتي . إن يتي أمين يسكن طبقاته جميعا أسر
محشمة ، ولقد أحبتك للنظرة الأولى لأن فيك شبا من ابنتي.
التي تزوجت بعيدا . تزوجت هنا موظفا وانتقل الى أسوان.
فبعدت عني . ولو كنت أحسب للغيب حسابا ما زوجتها من
موظف ينتقل .

قالت أحلام :

— لقد تزوجت في بلدك يا ليلي .

قالت صاحبة البيت :

— أأنت من أسوان يا ليلي ؟ لابد أنك تعرفين زوج بنتي،
فلانا ... أتعرفينه ؟
فأجابتها :

— لقد غبت عن أسوان عامين . وسأبلغه تحياتك عند
رجوعى .

فقالت :

— حسن تعالى على الرجب والسعة ، واقل متاعك ،
وأقيمي في رعاية الله .

وما جاء المساء حتى رتب الأثاث في الحجرة وأضىء فيها
مصباح . وسجل لها لأول مرة أن تستمتع بمكان لا يشركها فيه
أحد .

ثم ودعتها أحلام ، فقبلتها قبلة أودعتها الاعتراف بالجميل ،
وأوصدت الباب واستسلمت لوحدة طويلة .

ليس الأصل في النفس أن تكون موحشة أو خالية من
الإنسان ؛ لأنها كالبيت لا يبنى الا ليسكن . فهو اذا خلا خرب ،
واذا خرب انهدم ، والنفس المنعزلة لا بد أنها اتصلت ، ثم لأمر
ما ضاقت بالصلوات فأفرغت من الناس ، كمثل ساكنى الأديار :
انهم كانوا قبل هذه العزلة أشد ما يكونون اتصالا بالحياة
واستمتاعا بمباهجها ، ثم لعلها تركتهم فتركوها ، أو قطعتهم
فقطعوها . أما أن تخلق النفس موحشة خالية فذلك قليل .
وهى مع هذا صالحة للاتصال مصلحة به ، كالكهف يخلق فى
الجبل ماجوفه أحد ، لكنه يقبل السكنى وتزيل ظلماته الأضواء .
والليلة الأولى فى مكان من الأمكنة أهل الليالى بالخيال ،
والخيال فيها أخصب ما يكون . من أجل ذلك أحسست فتاتنا بالعزلة
وهى جالسة الى نافذة غرفتها تسرح الطرف فى أرض مجهولة

كتب لها أن تعيش فيها فتاة . كما كتب لها أن تولد في أرض
مجهولة نقلت منها طفلة فسبحت في وجود غامض وليل مظلم ،
وان كان القمر في سواء السماء يرسل أشعته الفضية على الكون
فيغمره بالنور والسرور .

وترامى الى سمعها من البيت التي تجاهها صوت امرأة
تقول : « هذا كذب ... لا تعود نفسك الكذب يا بنى ، وكن
صادقا في كل ما تقول . » وزج حديث المرأة بنفسه وسط
تيار خواطرهما ، وهى لا تزال جاعلة من ذراعها متكأ لرأسها
على حافة النافذة ، فقالت :

— أيجب أن يكون الانسان صادقا في كل ما يقول ؟ اذا لقد
أتيت في حديثي مع أحلام شيئا نكرا . وجعلت من نفسها
سائلة ومسئولة ، ثم أخذت تسأل وتجييب :

— ما اسمك أيتها الفتاة ؟

— ليلي !

— وما اسم أبيك ؟

— ليلي !

— وما اسم أمك ؟

— ليلي !

— أتجيبين على الحقيقة ، أم تجيبين على المجاز ؟

— طبعا على المجاز . فلن أكون أبا وأما وابنة .

— اذا فمن أبوك ؟

— أحد من الناس .

- أله دين يحفظه وفضيلة يرهاها ؟
- كلا بالطبع !
- ومن أمك ؟
- امرأة من نساء العالمين .
- أله غير دين أبيك وغير خلقه ؟
- هما متشابهان !
- ما بلدك ؟
- أرض الله كلها بلدى .
- اذا فلا أصل لك !
- كأنتى خرافة فى ذهن الزمن ، أو كذبة أطلقها لسانى
- لا تثقلى يا لىلى على لىلى ، فان اللقيطة منا تستحى من غير اللقيطة ! هبىها سقطت من السماء أو صلصالا تفخ فيه . هبىها رمى بها بحر أو انفتح عنها قبر . هبىها فقدت ذاكرتها حتى نسيت نسبها ووطنها . هبىها أى شىء تحبين ولكن لا تؤليها !
- وهل يفرض الناس الفروض ليرىحوا الناس ؟
- ألا ليتهم يفرضون !
- ثم مسحت بعد ذلك دمعتين سالتا على وجهها الناضر .
- واقهضت بعد ذلك فترة سمعت بعدها خفق نعل متاثلة على سلم المنزل ، فأدركت أنها صاحبتة ولا بد أنها آتية إليها . والا فمن الذى يجرى ؟ فحمدتها لأنها ستقذها من نفسها ، وتفصل اللقيطة من غير اللقيطة . وطرق الباب فخفت وفتحت .:
- تفضلى يا أماء .

— مساء سعيد يا بنيتى .

— مساء سعيد يا أمى .

وجلسا على السرير الصغير متجاورتين .

وقدما اشتهر العجائز بالثرثرة كأنهن يسردن فى كل مجلس ما لاقين فى عمرهن الطويل ، وعلى الجالس أن يسمع كارها أو غير كاره .

وتمكنك العجوز فى جلستها ؛ لأنها تريد أن تجعلها طويلة ولا تريد أن تتعب . ثم حركت فكها فى الفضاء مرتين أو ثلاثا كالشوط الذى يجريه الفرس قبل السباق ، وقالت :

— قلت لك : انتى أحبيتك للنظرة الأولى يا ليلى ؛ لأن فىك

م مشابه من ابنتى — حفظك الله واياها — لذلك وددت أن أجلس معك ما دمت وحدك ... أنا يا بنيتى قليلة النوم يندر أن أنام قبل الساعة الثالثة ... وكثيرة الأحلام ، وذلك لشغلى بيناتى مع أنهن فى أحضان أزواجهن وكلهم رجال طيبون . ولكن هذه طبيعة الأم ، تجدديها فى تعب دائم وهم ناصب وإن كان أبنائها سعداء !

— هكذا الدنيا يا سيدتى . من سعد فيها بنفسه شقى فيها

بغيره !

— صدقت صدقت ... وشقاؤها أكثر من سعادتها .

ولكن لماذا جئت الى القاهرة وحدك من هذا البلد البعيد ؟
(وأعفتها من أن تجيب واستطردت) : ان الجؤ فى أسوان قاس ، وزوج بنتى يشكو منه ، وكلنا نريد أن يعود الى هنا

ولكننا لانستطيع . كل شيء بارادة الله ... لم تخبرني لم جئت
من هذا البلد البعيد ؟

— أجاؤنى الى القاهرة ما أذهب زوج بنتك الى أسوان .
كل منا يطلب العيش !

— هو كذلك تماما . ولكنك يا بنيتى صغيرة وجميلة وماكان
ينبغي أن يتركك أبواك هكذا تمشين وحدك ، والدنيا يا بنيتى
كلها ضرور فى هذا الجيل .

رحم الله زما منا مضى كان للرجال فيه حياء العذارى ، وللنساء
فيه طهر الملائكة ! أما هذا الزمان فكفانا الله بلاءه ، وأحسن
لنا فيه الختام . لا .. ما كان ينبغي لهما أن يتركك هكذا أبدا
يا ليلى .

واستظرت الجواب .

— حقا ما كان ينبغي لهما أن يتركاني ولكنهما تركاني ...
لأنهما ماتا !

— ماتا ! رحمهما الله وقد قلت : انه ليس لك أخوات .

— ولا اخوة .

— لقد أحزنتنى . اذا لقد مات أبواك صغيرين ... ليت كان
لى ولد فزوجتك منه ! وأين تشتغلين يا بنيتى ؟

— ممرضة فى مستشفى الدكتور ك ...

— أعرفه ، فقد عمل فيه زوجى عملية جراحية كانت سبب
وفاته .. رحمه الله ورحم أبويك يا ليلى . ان من حق الميت
على الحي أن يدعو له بالرحمة دائما ... وصادف ان امرأة فقيرة

كانت تسكن في حيناً هذا بالقرب منا ، مات زوجها في نفس الليلة التي مات فيها زوجي ، كأنهما على ميعاد . وترك لها طفلة صغيرة ، وكانت في عسرة من أمرها فاشتغلت مرضعة في ملجأ ج ... وكثيراً ما كنت أعطف عليها وأصلها لأنها كانت طيبة القلب ... رحمها الله فقد ماتت هي أيضاً من نحو ثلاثة عشر عاماً .. طيب الله ثراك يا زينب .

— رحمنا الله جميعاً فكلنا ميت ، هذا من تحت التراب وهذا من فوقه .

— صدقت يا بنيتي ... أظنني أطلت عليك ... آن لي أن أنصرف لتنامي (ثم نهضت واقفة) طاب مساؤك ... اسمعي يا ليلي : هينيني أمك . أنا دائماً في خدمتك فلا تحذري شيئاً .. أنا أجبك لأن فيك مشابهة من ابنتي ... ومتى تسافرين إلى أسوان ؟

— عند ما يجيء العيد .

— أيام الشباب كلها أعياد ... طاب مساؤك مرة أخرى . وعاد إلى ذهنها ذكر زينب ، وكانت قد حدثت عنها هناك ، فودت لو أنها كانت مسمومة الثدي أو مريضة الدرأ لقد أرادت أن تحييها ، ولا تدري أنها أماتها . ولكن عفا الله عنها ، فما كانت تقصد إلا الحسنى .

ثم عاد إلى ذهنها من جديد حديث الصدق والكذب .
لو أنها حدثت العجوز بقول غير مأفوك لثرت به في كل مكان .

ما يجب دائما أن يكون المرء صادقا مع غيره ونفسه ، ولا بد
للعيش من زور وغرور ؛ لتجد على الأرض العالم والجاهل ،
والذكي والغبي ، والفقير والغنى ، والجميل والقبيح ، ولتبقى
الأشياء متميزة بأضدادها أبدا . فان الساعة التي يثبت فيها
لدى الحى انه فارغ من كل ميزة ، خال من كل موهبة -
لا شك أنها آخر ساعة في حياته .

وارتاحت ليلى الى تلك الخواطر قليلا ورضيت عن نفسها
بعض الرضا فنامت حتى الصباح بعد يوم كثير المتاعب . ليلة
طويلة . السمر .

٤

وأسرعت الأيام خطاها ، ومر عام متشابه الشهور متكرر
 الأيام . وفتاتنا تسلك طريقا واحدا من البيت الى المستشفى .
 لا يكاد يتغير ، حتى كانت تحفظ ألوان أبواب حوائطه ،
 ومواضع انحنائه وتعرجاته ، وكل شيء فيه .
 ولها من ثروة العجوز في البيت موضع تسلية ، وداعية ملل ،
 وصحيفة أخبار . ولها من زمالة أحلام أنموذج من فتاة ملأها
 الشباب فملأت به الجو عجيحا وضحيجا ، فهي لا تفتر عن بثها
 البشكوى أو بثها الأمل : هذا خطاب جاءها من ابن عمها من
 هناك ينقم فيه على الأيام التي فرقت بينهما ، والتي تؤخره
 خطوتين الى الوراء كلما خطا نحو اتمام الزواج خطوة . وهذا
 خطاب آخر منه يرسم لها فيه كيف يهيبى لنفسه ولها حياة
 هائلة في عش غرام سعيد . وهذا خطاب من أبيها يشكو لها
 ضائقة حاله ، وقلة ماله ، وكثرة عياله ، ويرجوها فيه أن تقدمه
 بما يفضل عن حاجتها لاختوتها الصغار ولو على سبيل القرض —

وأحلام عصبية المزاج ، غريبال أسرار ، لذلك لا تقترأ أبداً عن تحميل صاحبها عبء أمورها ، وتكليفها رسم حياة لها أمتع وأهدأ . وليلى فسيحة الصدر طويلة الانصات ، مشيرة بقدر ما تستطيع .

ثم خرجت الأيام معها عن طبعها الهادئ وسيرها الرتيب ، وعاد جزر الحياة فألقى بها في الخضم بعد أن قذف بها المد إلى الشاطئ . فلتسبح مع السابحين أو تفرق مع الفارقين .

مرض الدكتور ك ... ولزم فراشه بضعة أيام وكثر عواده والسائلون عنه . وكانت ليلى من العواد . كان ذلك في أمسية من الأمسيات التي ليس فيها عمل ، حين استأذنت عليه فأذن لها ، ودخلت عليه في فراشه وحيته وزوجه . ثم جلست وقد أثقل أجفانها الحياء وشاب خديها الحجل ، وربكها أول موقف من نوعه وقفته في حياتها ، فهي في بيت رب نعمتها وبحضرة امرأة غريبة لا شك أنها تعرف سرها . ولم يكن لها من شاغل إلا أن ترسل بشعرها إلى الورا في غير حاجة ، وتبعث بتنخج هادئ في غير عذر ، وتردد بين الفترة والفترة في أدب واستحياء . قولها : « لا بأس عليك يا سيدى الدكتور . عافاك الله » .

وألقت عليها المرأة التي بجوارها نظرة من سائها لا أدرى كيف وصلت إليها والبعد شاسع والطبقات كثيرة ! فرأت أجمل صورة خطها قلم الله في صفحة الوجود ، فأدركتها ولا شك غير المرأة من المرأة ... أدركتها الغيرة من دمة بلا روح ، ومن زهرة بلا ربيع ، ومن روضة حزينة ما غنى على

عذباتها غريد . ظنت في جمالها كبرياء فهاجمته ، ولو كان ثوبا
يخلع لخلعت . قبل أن تدخل عليها .
قال الطبيب ليقطع جيل الصمت الذي طال :
— كيف الحال في المستشفى يا ليلي ؟ (ولا يد أنه سأل كل
زائر أثناء هذا السؤال) .

فقلت :

— كل شيء سيزورك يا سيدي الطبيب .

فسألت زوجه في برود :

— أهذه هي فتاة الملجأ ؟

فأجابت ليلي في خشوع :

— نعم أنا ... هي !

وتحكم الرغبة وهو — على لينة — أقسى من الغل ! قد
كانت تستطيع أن تقول لامرأة غيرها تعرف سرها : ولم تسألين
ما دمت تعرفين الحقيقة ؟ ... انك صاحبة فضول !
ولم تلبث أن انصرفت ... جاءت تسجل الفضل فلحقها
النقص !

قال الطبيب لزوجته :

— ذكرتني حين قلت « فتاة الملجأ » بفتاة المرقص . وفتاة
المقصف ، ونحو من ذلك .. ما كان ينبغي لك أن تسألها مثل
هذا السؤال فقد آلتها وهي بعد فتاة رقيقة الحس طيبة النفس
حسنة الأخلاق .

— وهل في الحق ما يؤلم ؟



هل تصافح فتاة من الملجأ ؟ !

— وهل يؤلم الا الحق؟... كم يؤلم الدميم أن يقال له :
أنت دميم ، وهو أعلم خلق الله بذلك ! وكم يؤذى الشرير أن
يقال له أنت شرير ، وهو أشد الناس إيذاء للناس ! على أنها
لا ذنب لها ، انما ورثت تركة مدينة .
فقلت كأنها تداعبه :

— دكتور في الفلسفة !

— بل في الجراحة ... وأنت في التجريح . وابتسم ثم قال :
— لو كنت رأيتهما يا زوجي العزيزة يوم ذهبت لآخذها من
هناك ، ورأيت الموقف الغريب الذي وقفته ، لامتلات نفسك
عجبا بها وتقديرا .

ثم قص عليها قصة السوار الذهبي ، فأغرقت زوجته في
ضحك طويل وقالت :

— انما أرادت أن تقدم لك شهادة بحسن السير والسلوك .
شد ما تمتعت بدهاء مبكر ! أرادت أن تضرب لك مثلا في
الزهد والرضا والقناعة ؛ لتكسب ثقتك من اللحظة الأولى .
أو لعلها مولعة بالمواقف التمثيلية ، فجعلت من حجرة ناظر الملجأ
مسرحا لتلك الرواية ، وصعبك أثر خلقه الخيال الى دنيا
الحقيقة ، والناس يذرفون الدمع في المسرح ثم يضحكون على
بابه ، وأنت تبكي يا زوجي العزيز مشاهدا وغير مشاهد !
لاشك أنك رجل طيب القلب ، غير أن مرضك في المستشفى
من طبقة خاصة من الناس . فلا بد أن تكون مرضاتك
كذلك .

وتشاءب الطيب لينام فأمسكت زوجته عن الكلام .
تري هل ترك هذا الكلام السيئ أثرا في نفس الرجل ؟
لا بد أنه ترك أثرا لم يحسه هو نفسه لأنه لم يرتب عليه عملا .
والناس يتأثرون دائما في معاملاتهم بالآفكار القديمة التي كونوها
عن الناس ، كمدرس الانشاء يرجع الى الدرجة القديمة قبل
أن يقدر الموضوع الجديد .

وأصبحت ليلي وقد تشاءمت من حوادث أمس ، وأيقنت
أن الزمان تنبه لها ، وأن سرها المطوى عن كثير سيضحي كتابا
متشورا يقرؤه كل من يشاء . وخيل اليها أن تسير فتقول لكل
من يلاقيها : أتعرفني ؟ اننى ليلي اللقطة ! خيل اليها أن تفعل
هذا لتريح قلبها المعنى وخاطرها المبلبل . ولكن أيجوز ؟ وان
جاز ، أستطيع ؟

وأوغل الزمن في سخريته ، وثرثر كما تثرثر جارتها العجوز .
فانها لسائرة بعد أيام في إحدى طرقات المستشفى ومارة
بحجرة الدكتور ك ... واذا به واقف على بابها يودع زائرا
كريما عليه ، ونظرت فاذا به رجل يعرفها . دعاها باسمها وقال
للطبيب :

— لعلك مسرور من بنتنا ! انها كانت عندنا من أحسن
الفتيات . واستوصاه بها خيرا .

ولا بد أن أحد الناس كان قريبا منهم فسمع الحديث أو عرف
شخصية ناظر الملجأ ، فكشف القناع واقتشع الضباب . وأخذ
من في المستشفى جميعا يتهامسون :

— هل تعلمون ؟ ان ليسلى الجميلة لقيطة ! لن يعنى عنها جمالها شيئا .

وقالت الممرضات :

— هل علمتن ؟ ان ليسلى المخلصة لقيطة ! لن يعنى عنها اخلاصها شيئا .

فقال احدى المتطرفات :

— وماذا يا هؤلاء في أنها لقيطة ؟ ربما كانت كريهة الحسب عريقة المختد ، فلا تسخرن من الناس .
فتضاحكن .

وما قالت لهن ليلى يوما : « ماذا قلتن أو ماذا قلتن ؟ » غير أنها كانت تحس أن لهجتهن في نداء اسمها تغيرت ، كأنما أصبحت حروفه حروفا جديدة .

وماذا تصنع ؟ انها كانت تجرى الى غاية محتومة : فالأيام التي تمر فتقص شيئا من عمرها ، هي نفس الأيام التي تمر فتظهر شيئا من سرها . الى أن يفشى المكتوم ويوارى الجسد ! ثم أوغل الزمن في سحرته وظهر على جارتها العجوز في ثرثرته .

فانها جالسة ذات مساء في حجرتها تناجي الهم وتنادم الأحزان — واذا بالسلم يخفق : لا شك أنها العجوز ... لا بأس فأسمع أخبارا جديدة : هذه ولدت ! وتلك في شهرها الخامس ... أما فلانة فانها مقتررة على نفسها ... وفلانة

لا تحسب للغد حسابا ... ولكن ما هذا ؟ انها ليست وحدها !
وطرق الباب فخفت وفتحت :
تفضلى يا أماء .

مساء سعيد يا بنيتى .

— مساء سعيد يا أمى ... أهلا بك وبمن معك . وجلسن .

قالت العجوز :

— هذه بنتى ثريا التى فى أسوان . حنت الى وحننت اليها
فبعثت اليها فجاءت تزور . هذه هى التى أحببتك من أجلها !
انظرى اليها ... شعرها أصفر يقاربه شعرك ... وبياضها : لو
لم يكن أصفى قليلا من بياضك لكتتما متشابهتين فيه ...
وقوامها : انه أكثر اعتدالا وأغنى بضاضة ، ومع كل فقوامك
جميل ... أما العينان : فأنت تمتازين بخضرة العينين ...
ولكن لا تنسى ما فى عيونها من سحر ... ان زوجها مفتون
بعينها حتى لقد جعلها قسمه عليها .

ويعلم الله أن ثريا كانت باهتة الشعر ، سميكة العود ، مافيا
سحر ولا فتنة — اذا نظرنا اليها بغير عيني أمها !

واستمرت العجوز تقول :

— هذه ليلى يا بنيتى ساكتتنا الجديدة . وهى فتاة محبوبة
فيها كثير من أدبك وكرم أخلاقك . وقد سرنى أنها من أسوان
ويبدو لى أن أهل هذا البلد كلهم طيبون !
قالت ثريا :

— يا للمصادفة الحسنة ! أأنت من أسوان يا ليلى ؟

— نعم من أسوان .

— اذا تعرفين حى كذا وحى كذا ، والتاجر فلانا أشهر تاجر
هناك هل تعرفينه ؟

— أنا من أسوان ولكن ليس على التحديد ، فقد جرت
عادة الريفيين أن يذكروا اسم أشهر بلد قريب منهم في الاقليم ،
لعدم شهرة القرى والداكر التى يكونون من سكانها .
وقليلا ما كنت أنزل المدينة لأننى محمولة المئونة مقضية
الحاجات . ثم أرادت أن ترشوها :

— على أن مدينة القلب هى الوطن . والقاهرة مدينة قلبى
يا أختاه ، فيها أمك يا ثريا وهى أمى ، وفيها مستشفى الدكتور
ك ... وهى مورد عيشى !

وكأما توسلت اليها بلهجتها الحزينة ألا تثقل ، فانصرف بهن
الحديث الى أغراض بعيدة عنها ، حتى حان فاستأذنتا وخرجتا .

هذا هو السيد الأمين نزيل مستشفى الدكتور لك ...
رجل آتاه الله الحكمة واجتباها وهداه .
شيخ تقى تقى عالم زاهد ، تقرأ في وضاعة وجهه ودعة قلماته
آية الرضا والقناعة والقبول .
تألفه العين للنظرة الأولى وتطمئن اليه النفس ، للوهلة الأولى ،
كما تطمئن الى اليقين ، وتركن الى السلام .
لحية بيضاء خفيفة مستديرة كأنها طفاوة الشمس أو هالة
القمر . وعينان استعانتا بالمنظار من طول ما سهر صاحبهما
عابدا أو قارئاً أو كاتباً ، وشفتان لاتقران عن التشبيح والتحميد
في حركة خفيفة وهمس ضئيل ؛ لأنه لا يسمع الا الله .
بعثت به الأقدار في طريق ليلي حين أدركها ليل الحياة ولقها
ظلام الوجود ، فكان له في نفسها أثر بالغ ، وفي حياتها صدى
عميق .

وهذه هي ليلي مكبة عليه ووجهها مشرق وثغرها باسم تعالج
جرحه الذي كاد يبلية ، وهو يرسل اليها من عينيه الضعيفتين
نظرات عفة قانعة كأنه يتأمل روضة أو جمال زهرة - وقد لفت
عليه الضادة وقالت :

- أراك اليوم بارئاً يا أبى . وقد اجتزت مرحلة جزعت عليك
فيها نفسى فالحمد لله !
وسكنت برهة ثم انفرجت شفتها عن بسمة مرة حزينة
وقالت :

- ليت جراح النفوس كانت تطيب !
ألف طيب وألف دواء حشدت للجسم ، ولا أرى لداء
النفس طباً ولا دواء !
وضحكت مرة أخرى لتقلل من أهمية الحديث .

فتحامل الشيخ على نفسه ، وألقى برأسه على حشية الى
شباك السرير حتى كان نصف جالس ونصف نائم ، وأجرى يدا
عارية الأشاجع على لحية طالت لما أغفله عنها المرض ، ثم قال
بصوت هامس سمعت فيه ليلي نبأ لم تعهده أذناها من قبل :

- بنيتى ... ليلي ... أنا شيخ عركت الحياة وطالت صحبتى
للمزمان . أكل الدهر رطبى وترك يابسى وجفنى ، والصلة بينى
وبين السماء دائماً قوية . وأعتقد أن لى آخرة أهلة ... ولكنى
جزعت ... جزعت من العلة ، وغمرتني وحشة ومخاوف حين
أحسست أنى على أعتاب الأبدية ، وشعرت أنى متعلق بالدنيا .

متعلق بها وهذه حالي ؟ فما بالي أراك على غير ما أرى عليه
الشباب ؟

شد ما نازعتني نفسي منذ أحسست بنفسي الى أن أقنعتهم
عليك استيحاشك وألج عليك محرابك !
ولكنني ترددت حتى وجدت الشجاعة ، ففعلت .

تقى بي يا بنيتي ؛ فلا بد من شكوى الى ذى مروءة وتخففى
قليلا من ذلك الهم ؛ فان عودك اللدن لا يقوى على احتماله ..
ما خلقت للهم أعوادكن انما خلقت له كواهل الرجال !
فقلت :

— أنا فى ظلام من دنيائى يا أبى ، لا تشرق على شمس ولا
يحينى شعاع ! أنا لحن غير مطرب ... أنا سر كان يجب ألا
يذاع وحديث كان يجب ألا يشاع ! أنا كلمة غير واضحة
ولا مفهومة ! أنا مبتدأ ما له من خبر ، وفعل ما له من فاعل !
أنا واغلة على مائدة الوجود ، أطلعهم والناس بى برمون ، فلا أنا
مسكة ولا هم راضون !

أنا يا أبى ... أنت لا تدري من أنا !
أنا خرقة كانت فيها طفلة ، أبى الملجأ ، وأمى المرضعة ،
ما استقبلتنى قابلة ، ولا استتممت بلشاة أم ، ولا استمجت
الى أغنية فراش !

أنا لقبطة ولست أخجل منك ! أنا لقبطة !
هذا هو سرى وقد علم به كل من حولى .

ثم نظرت اليه بطرف دامع وقلب واجف : لأنها ستسمع الحكم
على نفسها للمرة الأولى . فقال الشيخ في ذهول :

— أأنت لقيطة ؟ لشد ما ظلمك الناس ؟

— وأبى وأمى أول من ظلمونى !

— فلا تظلمى نفسك ؛ فأنت غير التى تعرفين .

ابتسمى للحياة واضحكى للوجود ، وادخلت الى قلبك
فانزعى منه جذور التشاؤم ، وارسمى الدنيا راقصة يرقص
حولك كل كائن .

انشقى النسيم العليل ودعى الجو الخائق ، واسمى اللحن
الجميل وسدى عن النادبات المسامح .

لم يكن لك حق فى الحياة حين كنت على الشاطئ الآخر ،
وأنت اليوم على شاطئ الأحياء ، فلك ما لهم وان عبرت على
زورق مسروق . ونحن لا يهمننا المعبر ، ولكن يهمننا العابر .

أنت حلقة أولى فى سلسلة النسب ، فكونى حلقة من ذهب
ومن يقل لك أين نسبك ؟ قولى له : وأين خلقك ؟ فإن تساويتما
فى الخلق لم يفضلك بالنسب ... أنت لم تلدى نفسك ولم يلد
هو نفسه .

وظلام النفس يا بنيتى أرهب أنواع الظلام ، فلا تعيشى فى
وحدة ووحشة ، ولا تعرضى عن جمال الدنيا ؛ فمن حق كل حى
أن يتمتع به .

وانك ان فعلت دبيت الى الشيخوخة وأنت فى ريعان الشباب .
اتهمى النعيم المباح ، وانسجى حول نفسك خيوطا من

(لقيطة)

السعادة. ولو واهية موهومة ، فان لم تسعد نفسك عز عليك
المسعد .

استبشرى بالصباح وغردى مع المساء ، وافرضى على الناس
وجودك ؛ فما أنت مذنب ولا جانية !
أنت روح طاهر فى اهاب طاهر !
أنت ساعة توبة أعقت ساعة خطيئة !

أنت لفظة استغفار ردها لسان عثر فقبل الله وغفر !
أنت دمة ندم ملؤها حرارة وفيضها طهارة !
أنت يا بنيتى ... أنت لا تدرين من أنت ! .

أنت هفوة عابد أو عثرة زاهد ما حسبت فى السيئات !
هذا هو أنت يا ليلى فلا تحزنى . وهذا هو دستور مملكة
الفاضلين فان رأيت أحدا من الناس يجرى عليك غير هذا القانون
فاعلمى أنه غير فاضل ، واستغفرى له الله !

بـ أبى ... أحقا أنا كذلك ؟ ما كان أحوجنا جميعا ونحن فى
ملجأ ج ... أن نسمع من فم هناك مثل هذا الحديث !

كان لى صاحبات تفرقت بهن المذاهب وكلهن أشد منى
استيئاسا وقنوطا . وزعنونا على البلدان كما توزع اللعنات ،
وتعاون على أمرنا الناس كما يتعاونون على المصائب ، فحسبنا
أننا عليهم محسوبات . ولكنك قلت لى : ان من حقنا أن
نعيش ... ربما كان فيهن من عشن ، ولكن هل أستطيع أنا أن
أعيش ؟

ثم انفلتت خارجة ووجهها الى الشيخ فى سريره ، ولم تمهله

حتى يقول لها شيئاً . ولكن نور الايمان وضوء اليقين المشرقين
على جبينه نقذا الى نفسها دون أن تشعر .

والتقت بها أحلام بعد أن خرجت :

— أين أنت يا ليلي ؟ اننى أفتش عنك منذ زمن طويل ولا
أعلم أنك في حجرة الشيخ .

ما لى أراك كثيرة التردد طويلة المكث هناك ؟ لعلك تتلقين
درسا في الدين أو في الفلسفة كل يوم ! ولو كان في ديننا رهبانية
لخفت عليك أن تلبسى المسوح وتسكنى الأديار ! ما لك تألفين
الشيخوخة وتعشقين الفناء كأنك في أخريات العمر ! ارحمى
الشباب الغض من ثلوج الشيخوخة ، وأرسلى عليه من حرارة
الحياة ما ينضّر عوده وما يذكى عبيره ... ليت شعرى فيم كنتما
تحدثان ؟

فقلت بلهجة مريحة :

— تحدثنا طويلا عن الحب ، لقد سألته عنه لأنه شيء ما عرفته .
أتدريين ماذا قال لى يا أحلام ؟ قال : ما الحب يا ليلي ؟ أترين
فيه شيئاً شائناً أو غير طبيعى ؟ انه تفتح النفس للنفس ومناجاة
القلب للقلب ... (وأعادت عليها ما سبق أن قالت أحلام عن
الحب) .

قالت أحلام :

— ما زلت تسخرين . لا تنخرى منى وأنا حزينة ؛ فاما
أحوج الناس الى رثائك يا ليلي !

— طلبت منى يسيرا ... استمعى الى فأنا أجيد توقيع النغمات
الباكية .

وتركتها جالسة على كرسي ووقفت على آخر ، ثم أخذت
تقول :

— لم لا أرثيك يا أحلام وأنت حبيبة القلب وشقيقة الروح ؟
رحمك الله يا أختاه ! ماذا عراك وقد كنت بالأمس ملء دنياك ؟
مأشد غدر الزمان الذى حطم كأسا كانت قننة الأنظار والآفواه ؟
رحمك الله يا أختاه !

ثم نزلت بعد أن بهرها الضحك ، وضحكت أحلام من
ضحكها ، فلما أفاقت قالت :

— وأيضا ما زلت تسخرين !
— أنت تسخرين منى وأنا أسخر منك ، وهناك ثلاثة تسخر
من اثنتينا ، والزمن يسخر منا جميعا ... والعيش كله سخر
وسخف .

— اذا تعالى تتعاون على الزمن ونسخر منه ، واستمعى الى
ما أريد أن أقول ...

ولكن مالى أرى فيك مرحا ما رأيته من قبل ؟ لعل نور سعادة
لاح فى أفق حياتك ، أو لعل لهذا الشيخ ولدا ستزفين اليه !
— لا . لا . ما أصبت الهدف وان حام سهمك حوله . لقد
خطبنى ابن جارتنا المعجوز وسأزف اليه ان شاء الله فى عالم
القيب . وسيخترق شوارع القاهرة موكب من الأرواح يردد
أناشيد الأبدية . وسيكون ثوب زفانى من أشعة الشمس واكليل

عرسى من نجوم السماء . غير أنى استمهلته حتى أعلم : أأبى فى
الأحياء أم فى الأموات ، ليذهب اليه ويطلب يدى منه .
وهنا يرتفع عويل امرأة فى فناء المستشفى لأن ابنها قد مات .
فتقول أحلام :

— لعل هذا من أناشيد الأبدية !

فتقول ليلى :

— وسيخترق شوارع القاهرة موكب الأرواح ، ترى أهذا
عرسى يا أحلام أم مآتمك ؟ لا تنسى أنتى كنت أرثيك منذ قليل .
— حقا ان العيش سخر وسخف كما تقولين . وقد جاوزنا
الآن حد هذا وذاك ! ألا تريدان أن تستمعى لما أقول يا ليلى !
اننى متألمة حزينة .

ان أبى وأمى يحولان بينى وبين سعادتى ...

— كما فعل أبواى من قبل .

— ليس بالضبط ، فان أبويك لم يقصدا الى اشقائك بل
أشقياك بدون قصد . أرجوك ألا تقاطعنى حتى لا أسى الكلام
فأنا مبليلة الفكر مضطربة خاطر ولم أنم ليلة البارحة ... ان
أبى وأمى يحولان بينى وبين سعادتى . وقد قلت لك اننى أحب
ابن عمى وهو يحب نفسه وتسود بيننا جميعا فكرة
أنه سيتزوجنى . وقد قلت لك يا ليلى انه سبىء الحظ على وفرة
ذكائه . وكلما هب المال الذى يكفل لى وله أن يضمنا بيت
سعيد . نزلت به نازلة أو اجتاحتها جائحة ..

ولقد شكوت اليه استقالة الزمان على أمرنا ، ورجوته أن

يمجل ، فوقف أبواى فى سبيله ؛ لأنه لا يملك مالا كافيا يرضى
جشع الآباء والأمهات ... كآتنا فى نظرهم سلعا تباع وتشتري
لا زوجان تجمع بينهما كلمة الله .

وقد كنت ادخرت من مرتبى شيئا بعد شيء ، فاستنفذه أبى
بخطاباته وشكواه شيئا بعد شيء ، وأصبح الحبيبان وقد أعدما
من المال وأصبح المال الصلة التى تجمع الحبيين - فى نظر أبوى
بالطبع - لذلك ثار ابن عمى فى خطاب أرسل به الى وقال : انه
عيبى بالأمر وأصبح يفكر أن يدوس قلبه تحت قدميه ويعرض
عنى الى فتاة أخرى تكون موفورة المال ، فيصلح بها ما فسد
من أمره . وأنا بينه وبينهما لقي معذب .

ليتنا تبادل الموقف يا ليلى فيكون لى حبيب وليس لى أب
وأم ، ويكون لك أب وأم وليس لك حبيب .
فقال ليلى :

- أنا لا أصلح للبدل فما لى أب ولا أم ولا حبيب الا اذا
كنت تعتبرين الشيخ الذى هناك ، أو الدكتور ك ... أو ابن
جارتنا العجوز حبيبا . فاخترى من ثلاثتهم من تشائين . انك
تستشيرين فى أمور الحياة فتاة على حواشى الحياة ، وتستفتين فى
شئون القلب فتاة بمعطلة القلب لولا خفقاته ما أحسست به
وبعد ، فأنا أصلح للبدل من هذه الناحية : هاتى قلبك وخذى
قلبى وأنا أضمن لك أنك ستبغضين ابن عمك أول ما تبغضين ،
ثم تبغضين بعده جميع الرجال .

لا تظني يا أحلام أننى أسخر منك ... أنا أسخر من نفسي
لأننى خلقت كهيئة الناس ولست من الناس ، وعلى صورة
الموجود ولست بموجود ، وقد عرف الناس سرى فما عذروني
ولا غفروا لى ، مع أن الخطيئة قد سبقت الغفران ، ولولا الخطيئة
ما عرف ، ولا تواضع على معناه المتخاطبون .

ليتنى كنت مذبذبة حرمت العفو ، اذا ما كنت آسى ولا
آسف ؛ لأن العافين متفضلون وما على المحسنين من سبيل .
لكنى كسبابة النادم عضوا على حتى دميت وأنا ما جنيت .

أتعرفين ذلك الشيخ الذى أتردد عليه وأطيل المكث عنده ؟ انه
السيد الأمين العالم الزاهد ، الورع التقى . هو أول رجل
سمعت منه كلمة رثاء ، وأرسل فى طريقى شعاعا من رجاء . اقد
قال لى يجب أن تعيشى !

وحقا يجب أن أعيش ؛ لأننى أسلك طريق الحياة وهو معتم
دامس يستوى فيه المضى والرجوع . على أن المضى واجب الى
أن يقف الموت مسيرى . ومع المضى أمل فى السماء ، فقد
ترسل لى ومضة أبصر بها مواطىء أقدامى وتبين بها الأشباح
أمامى . أما الرجوع فانه محرم وليس من حقى معه أن أرجو
السماء ، فتتصل ظلمة الطريق بظلمة القبر ، فأعيش فى ظلام
وأموت فى ظلام .

لذلك آمنت يا أحلام بما قال الشيخ !

آمنت بأنه يجب أن أعيش .

يجب أن أعيش لأشغل مكان نعمة في لحن الوجود مطربة أو
حزينة ، ولأحتل مكان زهرة في باقة . وضعت على جبين عروس
أو على أحجار قبر !
يجب أن أعيش سعيدة كنت أم شقية ؛ لأؤدي المهمة التي
فرضها على الله !



وفارقتها أبوها الروحى ...

يمز على الانسان أن يتخلى عن مألوفه ويتخلى عنه مألوفه ،
 اتصل باليدن أو اتصل بالروح ، وكان نافعاً أو غير نافع .
 فترانا فيكي على الهين بسموع نذرفهما على الجليل ، وترانا
 نركن الى الحاضر وان كان فيما وراءه سعة وسعادة . ونرجع
 الى أيام لحياتها وتمنينا زوالها ، فنحمد صبيحتها ومساءها وبساطه
 عيشها وهدوء البال فيها .
 وان كنا في الشباب حننا الى الطفولة ، وان سلخنا الشباب
 عدنا فحننا اليه ، ولو كان في مراحل العمر مرحلة بعد المشيب
 لحننا فيها الى المشيب .
 وهكذا نرى حياتنا سلسلة من الحنين متصلة الحلقات ، وان
 دل الحنين على شيء فاعلم يدل على الألفة ، كما تدل الخضرة على
 الماء واللباق على النار .

وأشد بألوف تعلقا بالنفس ما ألفتها النفس أول شيء . من أجل هذا لا ينسى صديق الصبا ، ولا يسلى أول حبيب . وعلى قدر ازدحام القلب بالألوف أو عدم ازدحامه ، يكون قبوله للألفة وعدم قبوله ، ويكون حنينه أو عدم حنينه : فكثير الأصدقاء قليل الوفاء ، وكثير الحب لا شك أنه محترف .

ولو وضعنا قلب ليلي تحت ضوء هذا الشعاع لعرفنا مقدار أساها يوم تم براء السيد الأمين وأعد للخروج العدة . فأنها أحست ولا شك للمرة الأولى بوحشة تتمشى في أنسها فتقص من أطرافه ، واختلج قلبها اختلاجه يوم ودعت الأتراب وهي خارجة من الملجأ منذ ثلاث سنوات . فأدركت أنها ألفت في الدنيا مكانا ورجلا ... ألفت ملجأ ج ... وألفت السيد الأمين . ووقفت على باب المستشفى عربية كراء شد فيها حصانان ، وأشرف سائقها من على كرسيه العالي ليستعجل الراكب . فصعد إليها شيخ وقور بطأت خطاه آثار العلة وآثار السنين ، وداعب النسيم ثوبا أبيض وقفت صاحبتة تودع الراكب، وكان ثوب ليلي . وتبادل من في العربية تحية عاجلة سمع بعدها صوت الشيخ وهو يقول :

— أنا بانتظار زيارتك يا ليلي .

ثم درجت العجلات على أديم الشارع ، وسمعت فرقة السوط ، وبقيت العنان الخضراوان تبعان العربية في شخص لا يكاد يطرف حتى واراها منعرج الشارع ، ثم انتفضت صاحبتهما وأفاقت من ذهول، وأدارت وجهها الى بناء المستشفى

وولجت الباب وأجازت الحديقة وقلبها يقول : اليوم ودعتى
روائع الأبوة وزايلتنى كأنها خيال ! وصعدت السلم ودخلت
حجرته ذات السرير الواحد ، فلم تر فيها مصدر الشعاع القوى
الذى نفذ الى قلبها الأصم ، وأضاء ظلمة نفسها الخزينة .
ومرت زميلتها أجلام .

— تعالى حدثينى عن الحب يا أختاه ، فأننى آلت التحدث عنه .
وابتسمت .

— أساخرة أنت فى هذه المرة أم أنت غير ساخرة ؟
— ألسنا متفقتين على أن العيش كله سخر وسخف ... لقد
نسيت أول مادة من لائحتنا الداخلية .. سأعفيك من الكلام ..
أنا ذاهبة لأشرف على نقل مريض الى الحجره ذات السرير
الواحد ... ترى من ذا الذى سيشغل مضجع هذا العالم
الجليل ؟ ربما كان من أجهل الجاهلين كالذى يرث عن أبيه مكتبة
لا يفقه فيها شيئاً . ولكن ما لنا وللناس ! كل ما هنالك انى
أحسست بوحشة من بعد هذا الرجل !

— أهنيك يا ليلى ... أهنيك يا أختاه ... هذه بشائر الحب
تداعب قلبك الخالى ، وهذا أول شئ من نبعه الذى سيتفجر .
ترى من ذلك المحفوظ الذى تهىء له الليالى هذا الكثر وهذه
الثروة وتلك السعادة ، لقد بدأت تألفين الناس .

— كان من حقك أن تقولى : لقد بدأ الناس يآلفونك ... طالما
قرعت عليهم الأبواب فلم أحظ منهم بجواب . الا أننى كنت أريد
أن أدخل شريفة وأخرج شريفة ، والا طابت الوحده ولذ الاتفراد .

أنا بستان من غير حارس . وشهد لا يحوطه نحل !
 أنا وردة ليس يحميها شوك ... أنا شاة غفل عنها الراعى
 فتخلقت عن القطيع والمرج تعوى به الذئب ، والذئب يفتك
 جائعا وغير جائع ؟
 أنا فى دعر من نفسى ، وهلع ممن حولى ، لا أنا مؤمنة
 الداخل ولا الخارج ، كدولة انقسمت على نفسها وأحاط بها
 الأعداء !

أنا لا أملك ما يسمونه جمالا ، وهو نار مشبوبة يتهافت
 عليها الفراش ، ولكن الفراش لا يحترق !
 أنا نخلة منفردة فى فضاء فسيح ، لا يقف شئ بينها وبين
 الريح !

أنا المشير والمشار اليه ، والمقترح والموافق ، والسائل
 والمسئول ، والكافل والمكفول !

أنا التى خلقت وحدى وكأنتى حواء هذا الزمن !
 اغفرى لى يا أختاه خوفى من الناس واطلبى لى عناية الله ،
 فان حملى ثقيل وساقى ضعيفتان ، وأنا أخشى أن أزل . ان
 المجتمع واقف لى بلمرصاد فلان أحسنت ، قالوا : تكفري . وان
 أسأت ، قالوا : معدنها ... خارجة من الريح داخله فى الحسارة .
 ألا بنست هذه التجارة !

لو كنت رجلا وخضت معمعان القتال لكنت من أشجع
 الشجعان ؛ لأتى أريد أذ أسموت . ولو وقع لى هذا أيضا
 ما مت ؛ لأن المرجو دائما متخلف . ولو اجتمعت جراح الدين

يئون من حولنا في جسد مثلي ما قتلها ؛ لأن النفيس هو الذي يفقد . فاغفرى يا أختاه خوفاً من الناس واطلبى لى عناية الله ، فان حملى ثقيل وساقى ضعيفتان ، وأنا أخشى أن أزل !

— ليت شعرى كيف يطيق شبابك الغرير كل هذا يا ليلي ؟
انك تهوين على بلائى وتستغفرين لآبوى من ذنبهما ... خفى
عنك يا أختاه وسأطلب لك عناية الله !
وافترقت الزميلتان والأولى مثقلة بحبها والأخرى مثقلة
بعبئها .

ثم مضت الأيام في سيرها بطيئة في نظر ليلي ، وجاءت عطلة
الأسبوع وكانت في حجرتها قلب أمر زيارتها للشيخ ظهرا
لبطن . ترى أتذهب ؟ لعل في بيته مثل امرأة الدكتور ك ...
فيهاجم جمالها البائس مرة أخرى لكنه رجل طيب القلب ولا بد
أن امرأته كذلك . ان قلبها مرتاح لأن تذهب ، وحديث القلب
قلما يكذب .

وارتدت أكثر ملابسها احتشاما ، وأقلها الترام في أصل
ذلك اليوم الى هناك ، ووقفت على باب مكته ثم ترددت
مرة أخرى ، لكن يدها سبقتها ففرعت الجرس ، وانفتح الباب
وظهرت به خادم عجوز . قالت ليلي :

— لعله بيت السيد الأمين ! قولى له : ليلي .

وحملت فيها الخادم وتركها ، ودخلت ثم عادت تحمل
الاذن :

— تفضلى يا سيدتى ... هذه حجرة الانتظار .
ولم يطل انتظارها الا بقدر ما يتأهب صاحب البيت للملاقة
ضعفه ، ثم دخل عليها فى لبسة المتفضل . وقد ألقى على كتفيه
عباءة سوداء زادت فى اشراق وجهه المضى . وحياها تحية
الأب لابنته وجلس على كرسى تجاهها . وتكررت التحية
وتكرر الرد ، ولىلى مطرقة خجلة لا تجد ما تصل به الحديث ،
وتمنت فى نفسها أن لم تكن جاءت ، ولكن صدر المضيف
المنبسط الرحيب وسعها وأخرجها من حيرتها حين قال لها
وهو باسم :

— لم أسارع اليك كما كان ينبغى لأننى كنت فى المكتبة ،
كنت مستغرقا فى القراءة ولم أقم حتى وصلت الى مكان يحسن
عنده الوقوف . وهكذا تجددين أمثالى من الناس الذين يسميهم
الناس علماء — لا هم لهم الا القراءة . وأنا على الأخض جعلت
الكتب جدى ولهوى وعملى وتسليتى وأنا مثلك تماما يا لىلى
محتاج الى التسلية غير أن تسليتك من نوع آخر .

— بلا شك ، فأنا أقطع أوقات فراغى فى الخياطة والتطريز
أو فى الفكر والتأمل . على أنها أوقات محدودة لا تكاد تريحنى
من غناء عملى اليومى ، فنحن هناك جميعا لسنا نخلو من أحد
سوطين : سوط الغيرة والاخلاص ، أو سوط الدكتور ك...
وكبيرة الممرضات .

— الا أنك ممن سلط عليهن السوط الأول . لست أنسى
ما حييت ما بذلته فى سبيلى من عناية وسهر ... انك فتاة

عزيزة المثال ، وأنا أكن لك كل مودة واحترام .
وصافحت سمعها أول كلمة من نوعها : انه يحترمها ..
فكادت تبكى لأنها فوجئت بما حرمة ولا تزال تشتهيه ، أو لأنه
يوأها مكانا رآته أرفع مما تستحق . فقالت له :
— دعنى أنا أشكرك يا أبى فأنت الذى بعثت تقى . وأنا
ما قدمت اليك ما يعد جميلا إنما هو عمل آخذ عليه أجرا .
ولكم وددت فى تقى أن أنزل عن أجرى للمستشفى عن الأيام
التي أقمتها هناك ؛ لأكون لك خادمة مخلصة غير مأجورة ،
ولكنى أحسست أن هذا لا يرضيك فرجعت ، انك وهبتى
حنانا بخلت به على الطبيعة ! دمت وبقيت !
— أنت تملكين نفسا أعلى مما يظن الناس !
ودخلت الخادم بالقهوة ، وسادتهما بعد ذلك فترة ضمت
كنت لا تسمع فيها — لو كنت ثالثهما — الا صوت الرشقات
الهادئة . ولا ترى الا قلب عىنى لىلى الواسعتين فى جدر
الغرفة بعد أن خفت عنها قليلا وطأة الحجل . وعن لها أن تكون
بظلة الحديث فى هذه المرة فقالت :
— ان حيكم هادىء يا سيدى الأستاذ ... وجميل ...
وييتكم أيضا هادىء وجميل !
— أما هدوء الحى : فلائه من الأحياء الممتازة . وأما هدوء
البيت : فلائه ليس فيه ما يدعو الى الجلبة .
فقالت فى دهشة وذهول :
— أليس لك أولاد صغار يا سيدى ؟

— ولا كبار ... حمدا لله !
وضحك البيت من تجمع الأضداد .
فوضعت فنجانها من يدها فجأة كأنما خفت الى استيضاح
تلك المشكلة العارضة قبل أن تغيب عن ذهنها .
— سيدى : أنا مؤمنة بالله وقضائه وقدره ؛ لأننى احدى
أعاجيب القضاء . غير أن شيئا وثب فى نفسى مما سمعت منك
الآن ! أنت تنشئ الأولاد وأنا أنشد الآباء ، فضاء نشدانى
وضاع نشدانك .. مالى أرى بعض نواحي الخلقية كاملة ليس
يعتورها قصص ، مع أن الله لم يكتب لها الخلود — وأرانا يا أبى
فى قصص من وجودنا وأمانينا !
اننى حين أتكىء على حافة نافذتى وأسلى الوحدة بالفكر ،
وأسرح الطرف فى مملكة السماء . وأطلق العقل فى فضاء الأثير —
أراها كاملة الوجود محبوكة النواحي : هذه هى الشمس
ما تخلفت عن شروقها لحظة ولا غوقها فى خدرها معوق وهى
فانية غير أزلية !
وهذه هى النجوم والكواكب تحتل مكانا لا يكاد يتغير ،
وتدور فى مدار لا تخرج عنه ولا تضل فيه . وهى أيضا فانية
وغير أزلية !
وهذا هو البحر خلق مرا فما احلولى ، والنهر خلق حلوا فما
مر ، والعنديل مغرد وما نطق ، والغراب ناعق وما غرد وكل
هؤلاء فان غير أزلى !
أما الانسان فهو مضطرب المقياس خاضع للتبدل ، أدخل

شيء تحت حكم القضاء كأنما خلق القضاء له وحده : فهذا مؤمل محروم ، وذلك يعطى وما أمل . وهذا ساع مقل ، وذلك قاعد مكث . وهذا يمرض ولا يموت ، وذلك يموت من غير مرض ... ما كان أجدرنا ألا تتواضع على ما سميناه : « سيبا ومسببا » ما دام المسبب يتخلف كثيرا عن سببه ! ونظرت اليه بعينين متعطشتين الى المعرفة .

— لا يا بنيتي ... أحبى الله جبا خالصا تبين لك حكمة أفعاله . وان لم تبين اطمأنت الى فعله نفسك . واعلمنى أن قانون القضاء متسلط على الأرض والسماء ، فققضى لبعض الخليقة أن يكون أكثر نظاما وأطول دواما من بعضها الآخر . وان كنت تريد أن توزعى الأبناء على البيوت فلا يكون هذا مقفرا وهذا أهلا ، فوزعى على الصحارى أشجار الغابات !

ألا ترين بعد هذا أن القضاء جرى على الأرض بمثل ما جرى على الانسان ؟ غير أن الحكمة بانت لنا فى الأخرى ولم تبين لنا فى الأولى ، وان كانت النظرة العابرة والفكرة العائرة تقول : ماذا لو أن أرض الصحراء غطيت ببعض هذا الشجر فنبت ونجا ساكنوها من حرقة الشمس ؟ وماذا لو أن شجر الغابة وزغ بعضه على هذه الصحراء فنبت ونجا ساكنوها من الازدحام والالتواء ؟

أحبنى الله جبا خالصا تبين لك حكمة أفعاله ، وان لم تبين اطمأنت الى فعله نفسك . واعلمنى أن الله لم يخلق الشر الا لأنه ضرورة ، وعطلى ابليس يوما عن عمله ثم انظرى كيف يكون

النظام والوجود ! كأنك لا تستطيعين يا بنيتى أن تعترفى بأن الحياة منظمة الا اذا رأيتها « شكلا من الأشكال الهندسية » أو زخرفا من الزخارف التى نرسمها على الورق ونسق على هيئتها الشجر ! أما الدنيا كآلة من الآلات تراها العين فى جملة غير منتظمة مع أن نظامها فى اضطرابها ، واتساقها فى نشوزها .

فقرى بنفسك من وحشة الشك الى أنس اليقين ، ولا تسامى الى ما تسامى عن العقل .

وردد قارىء فى المذيع فى مكان من بيت الشيخ بصوت مستعذب النبرة : « يهب لمن يشاء اناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ، ويجعل من يشاء عقيما » . فالتقت عيناهما فى تفاهم وصمت ؛ لأن السماء تدخلت فى الوقت المناسب !

ثم دخلت عليهما سيدة محتشمة ضربت بخمارها على جبينها كأنها قد فرغت من صلاة . فيها جمال وعليها قداسة . يحتفظ جسمها بنعومة الشباب لأنه لم يرضعه طفل . ولم تكن تلك السيدة سوى زوج السيد الأمين . فنهضت ليلى لتحياتها ، وغمرتها ربة البيت بمثل ما غمرها به ربه من تعطف وتودد وترحاب ، فأنست نفسها بالبشر وخفت خطا الزمن فلم تشعر بأنها أثقلت أو أطالت . وتفرع بهم الحديث وتناول شئوننا شتى حتى حان موعد العشاء ، فتشبتا بها أن تكون معهما حتى قاموا جميعا اليه .

كان حول المائدة ثلاثة كراسي تباعدت بينها المسافة -
جلست ليلي على أحدها في تجاه السيدة وجنبها الى الشيخ -
وبدأوا يطعمون . فضحكت المائدة أيضا من تجمع الأضداد .
لأشك أنها كانت تقول في نفسها : ليتهما كانا أبوى ! إذا لكنت
سعيدة . ولا شك أنهما كانا يقولان في نفسيهما : ليتها كانت
ابنتنا ! إذا لكننا سعيدين . ولا شك أن كلا منهم ردد بعد ذلك
في نفسه ما سمعه من القاريء منذ فترة قصيرة ، فانطوت
النفوس على ما كمن فيها .

وفرغوا من الطعام ولم يطل بهم السر ، حتى استأذنت
ليلي ، فتركها الشيخ وزوجه واستراثما حتى يعود ، ثم ألقى
بين يدي ليلي بكتاب وقال لها : اجعلي من هذا تسلياً لك
عندما تملين التطريز ، فقد اشتريته أيام شبابي ؛ وقراءته نافعة
للشباب .

فقبلته باسمه شاكراً ، ثم ودعت الى الباب مكرمة عزيزة -



تقرا وتفكر ! ...

٧

لذت لها الوحدة وغمرها السكون حين جلست الى منضدتها
تقلب صفحات الكتاب الجديد ... انه أول شيء من نوعه وقع
لها أن قرأته : مذكرات فتاة أحبت ... ما كان أجدر أحلام بأن
تقرأ مثل هذا الكتاب لعلها ترى في دموع سطورهِ وتسمع
في أنات كلماتهِ ما يخفف غلواء قلبها المتهافت ويطفىء نار
غرامها المحتدم ، ويبعث فيها شيئاً من التحفظ والتحجز ! لكنه
وقع بين يديها هي فلا بد أن تقرأه .
وداعب النوم جفنها بعد تعب طويل ، فتناولت موقد
« الكحول » من تحت المنضدة ووضعت عليه « الشاي » .
وأخذت تقلب الصفحات :

١٨ بنابر

لم أكن أعرف الحب الا على أفواه العاشقين ، فما ذقت منه

حلاوة ولا برارة . ولوج لى به ذلك الفتى الوسيم ففررت منه . لكنه عاد فلوح لى به من جديد ...

١٥ مارس

ترى ماذا يعنينى من أمره ؟ أنا أشعر أنه تخلف عن ميعاده يوم لا يقابلنى فى المكان الذى تتلاقى فيه وجهها لوجه ، وأنا ذاهبة الى مدرستى وهو ذاهب الى عمله ... كنا تتلاقى فى مكان لا يكاد يتغير ، فالتفت ينة ويسرة ويلقى الى بكلمة ناعمة تؤيدها عيناه الصادقتان ...

٢٠ مارس

ترى أستأخر اليوم أم استقدم ؟ ولكن ماذا يعنينى من أمره ؟

٢٨ مارس

انه تتبغنى حتى عرف بيتى . وهو لا يزال يتر فى الشارع الذى نسكنه أو يجلس هنالك فى مقهى قريب ، وهو ليس من سكان حيننا ، فلا بد أنه مشغول . ولكن ماذا يعنينى من أمره ؟

١٠ ابريل

أشفقت عليه فرددته ردا جميلا ، فتزلف وتذلل فقبلت زلفاه ورحمت ذله : فطلب الى أن يجلس معى ليشرح ما يلاقى فى سبيلى ، ولى الأمر بعد ذلك فى أمره ، ولم أدر كيف جلست اليه ؟ قمت بعد أول لقاء وأنا غير محبة ولا خالية ، ولكن رتاج قلبى لم يعد محكما كما كان ، فسهل على الطارق أن يفتح له .

١٠ ابريل

سار الحديث بينى وبينه سيرته بين أخ وأخت حتى ألفت حديثه

ووثقت بطهره ، ولكنه طلب منى اليوم قبله .. قبله ! وفزعت .
ما هكذا تكون معاملة الناس ! لن نلتقى بعد اليوم ... اننى
أنست بحديثك وليس بينى وبينك أكثر من هذا ...

١٥ أبريل

قابلنى واستغفرنى فغفرت له ، لأنه كان برىء المطلب ساذج
القلب ، وقد طلب منى ما يطلبه الأخ من أخته ... شئ فارغ
من معانى الفجور ، عامر آهل بمعانى الحنان ، وليس يهمة
رضائى بهذا ، ولا يؤلمه أننى رفضت ...

أول مايو

جاءت القبلة اليوم عرضا خاطفة حين هزنى وهزه موقف
غرامى ونحن فى دار الخيالة ، ولم يكن من المستطاع ونحن بين
الناس أن أزجره أو أن أعتب عليه حتى لا أبه الغافل ،
فسكت ... ولكن أوراق الورد تناثرت تباعا بعد أن سقطت
أول ورقة ...

٧ يونيو -

ما أعظم مكره وأشد دهاءه ! انه يخلق حولى جوا من القلق
عليه حين يحدثنى أنه يوحى اليه أنه سيموت دون أن يسبح
الزمن بجمع الشمل واتصال الجبل ، وهو لا يآبه بالموت
ولا يحفل به اذا كان فى ظل وجهى الجميل ...

٩ سبتمبر

هذا أول موعد أخلفه معى ، فيا ليت شعرى ما الذى عوقه ؟
أهو مريض ؟ أم أصابه فى الطريق مكروه ؟ أم شغله عن حبيبته

حبيب ؟ لا هذا ولا ذاك بل هو خير وعين ... اننى أخاف عليه !

١٥ سبتمبر

لم يتأخر في هذه المرة وإنما جاء متهللاً ... ما خلعتنى
ولا خلعتنى نفسى ، انه يحبنى فلا بد أن أحبه ...

١٨ يناير

ولد حبنا منذ عام طوفت فيه الملائكة دائماً حول مجلستنا
ولكن مجلستنا الليلة ثلثنا فيه شيطان !

وبكيت وبكى ؛ لأنه شئ تعجلناه قبل أوانه ، ثم أقبلنا ...
ماذا في هذا ما دامت الثقة بيننا محبوكة النواحي والأطراف ؟
انه لن يفشنى بعد أن أسلمت اليه أغلى جوهرة ...

٢٠ يناير

لهف نفسى ! ما بال العجلة تدور بعكس ما كانت تدور ؟ انه
يريد أن أعلقه وهو الذى كان يتملكنى ، وأن أسترضيه ان
غضب وهو الذى كان يسترضينى ، وأصبح يأمرنى بعد أن
كنت أقترح عليه ، ويباعد بين فترات اللقاء كأننى شئ ثقيل !

١١ مارس

كثر اخلافه وخلافه ، وامتلا جوه بالغبار ... لقد أصبحت
في نظره امرأة ثانية !

١٢ ابريل

لى الله ، فانتى لم أعد أراه ... بل لا أرى أحدا من الناس
أبدا ؛ لأننى عميت عن جميع الناس ...
لقد سافر الى حيث لا أعلم ، وسيعود أو لا يعود فانا لا أعلم ...

١٤ يولييه

ما كنت أحسب أننى سأخدع ! ولا كنت أظن أن تحت هذا
الطلاء الجميل وجها قبيحا ! لقد كان ظلا لشيطان ! اننى أجرى
الى غاية مجهولة !

ورسفت آخر ما بقى من فتجان الشاى التى طالما غفلت
عنها ، ثم أخذت تستمع الى نفسها :

جنت على نفسها وحدها لأنها لم تلد أحدا ... ألا ليتها كانت
أمى ! ثم بكت لأنها تمتت فى هذه الليلة أيضا أما لا يرضى بها
انسان ... هى لا يهمها أن تكون أمها شريفة أو غير شريفة ،
ولكن الذى يهمها أن تكون امرأة لا تلد .

ثم عادت فسخرت من اللاتى أحبين جميعا لأنهن مخدوعات .
بعضهن خدمنهن الحظ فظفرن بأزواج ، وبعضهن تخلى الحظ
عنهن فظفرن بخيبة أو عار .

ثم عادت فسخرت من الحب نفسه : انه كالأمل : كم قوض من
عرش ، وكم طوح برأس ، وكم وضم من عاقل بوصمة الغفلة !
وتقول عنه بعد ذلك : انه حلو ، لأننا نظرنا الى شطه المخضر
وأغمضنا العين عن شطه الجديب .

وهكذا رسمت ليلى نوعا من الحياة خاليا من الحب فارغا من
الأمل . فياليت شعرى كيف يكون ؟

وخفقت على السلم النعل البطيئة المتثاقلة ، فقالت ليلى : هى
دائما تجيء فى الوقت المناسب حينما ينشب العسراك بينى وبين
نفسى كأنها كلمة الصلح ! وخفت ففتحت الباب .

— تفضلي يا أماء .
 — مساء سعيد يا بنيتي .
 — مساء سعيد يا أماء .
 وجلسا على السرير الصغير متجاورتين .
 قالت العجوز :

— كيف أنت يا فتاتي العزيزة ؟ لا تلوميني على تقصيري في زيارتك فان الشتاء عدو العجائز . لقد اصطلع على الأرق والسعال حتى تهدم جسمي ، ويقولون لي : اذهبي الى الطبيب وأنا لا أومن بالطب الذي قتل زوجي ... أنا أشرب أشياء كثيرة لكنها على نفعها لا تنفع ، لأن المود جف يا ليلي ولن يورق وان أتاه الربيع . ولا يزال جيراني كذلك يلومونني على تقصيري في زيارتهم ولا يحسبون لشيخوختي حسابا .
 وهذه السيدة (وأشارت الى الشقة التي تطل على حجرة ليلي) ما زالت تلح على في المؤاخذة حتى ذهبت اليها البارحة أزورها .

لا أطيل عليك . ذهبت اليها فوجدتها حزينة مبتئسة .. . الله ما يلاقى الآباء من الأبناء ! انهم دائماً مصدر متاعب لهم لا تنفد .
 فقالت ليلي في نفسها : والله ما يلاقى الأبناء من الآباء فهم في بعض الأحيان مصدر متاعب لهم لا تنفد .

ان ابنها الأكبر طالب في الجامعة ، وهو في سن العشرين مجتهد ، مثابر . لكنه عزاه في هذه الأيام شيء غريب : يدخلون عليه في حجرة مكتبه فيرونه ساهما واجما وهو معتل الصحة قليل

المينام منصرف عن الطعام . وقد سألتني أمه عما عساه جر عليه هذا البلاء فقلت لها : انها أعراض الحب .

نعم يا بنيتي فان للحب أعراضا كأعراض أى داء تماما ، بل ان أعراضه واضحة لا يكاد يشركه فيها داء .

ولسنا نعلم من هذه الفتاة التى دفع بها القدر الى طريق ذلك الشاب البائس المسكين ، الذى كان سليم العمل طويل النوم خلى القواد ؟

وتذكرت ليلي وجهه الذى كانت تصادفه في بعض الأحيان حين تكون قريبة من النافذة . وتذكرت نظراته التى طالما أرسلها ففرت منها فقالت :

— عفا الله عن كل ذى بلوى وعافاه .

— أجل يا بنيتي فان البلاء موزع على الناس . والليالى جبالى يلدن كل عجب . وليس أمر هذا الفتى الغر بأعجب من أمر صادفنى صبيحة أمس : ناديت بائمة لبن فاذا هى فتاة فى مثل سنك أو تزيد قليلا . ريفية صبيحة الوجه نظيفة ، فيها جمال وفيها حياء . واشتريت منها ما أحتاجه . فقالت لى : لا بد أن تشتري منى دائما يا أماه فأننى بنت حيكم . فمجببت وقلت : أنت يا بنيتي جيزية المظهر ، فكيف نشأت فى حينا ؟ فعلمت منها بعد ذلك أن أباه وأمه كانا ساكنين بالقرب منا ، ولما ماتا كتلها عمها وهو أحد فقراء الفلاحين بالجيزة . وهى تهبط القاهرة كل صباح لتبيع ما يحملها من لبن ثم تعود . ولعلك تذكرين أننى حدثتك عن امرأة تدعى زينب ماتت من زمن طويل ، وكانت اشتغلت

مرضعة في ملجأ ج ... بعد أن توفي عنها زوجها ! هذه الفتاة ابنة تلك المرأة .

فاتنفتضت ليلي انتفاضة خفيفة حين شعرت أن الدنيا تفضلت عليها بأخت لها من الرضاع وقالت :

— نعم لقد تذكرت ... أهذه ابنة تلك ؟ من العجيب أن تتجر كلتاهما في اللبن ! دعيها يا أماء تأت الى في الغدوات التي أكون فيها هنا ما دمت تقولين انها نظيفة ، فأنا أؤثر دائماً أن يكون اللبن في افطاري .

— بغير شك ستجنيء وستكرمينها يا ليلي .

وبدأت العجوز تتحامل على نفسها لتنهض بعد أن أدت مهمتها وتخفتت من خبرين أثقلاها . وهي لا تدري أن أحدهما أو كليهما ليلي شأن به ودخل فيه . وتبودلت تحية الوداع وأقبل الباب .

لم ينطق المصباح مع أن الوقت كان متأخرا ، ولم تأو ليلي الى فراشها على الرغم مما كان ينفثه الشتاء من برد لا يكاد يدفعه زجاج نافذتها المحطم الذي حل محله الورق . ولكنها عادت الى مجلسها الأول واستمعت الى نفسها مرة أخرى بعد أن ظهرت أختها :

ليست الحياة بالجدول الهاديء كما يراها بعض الأغرار أو قصار النظر ، انما هي خضم زاخر نفتش فيه عن صيدنا ولا نراه . نجرى وراءه بالشرع والمجداف وهو تحت قدمنا فترك مكانه الى مكان بعيد ، ثم نهيب بالريح مرة أخرى ونجرى راجعين

بالشرع والمجداف حتى نعود ، فيرونا أن صيدنا قد تحول !
 لليت شعري أيهما أجدي على الأحياء فيها : مصادمة أم كفاية ؟
 وبعد ، فماذا أراد الشيخ بحملى على قراءة هذا الكتاب ؟
 لا شك أنه رأى ما رأيت وأكثر مما رأيت ، رأى مجتمعاً يعج
 بصنوف من الحب منها الكريم الذي عمر البيوت ، ومنها الدنس
 الذي عمر الملاجىء ، فعخاف على أن تحل بى لعنة أبوى بعد أن
 حجب الى الحياة .

حيالك الله أيها الشيخ ! لا تخف على شيئاً ؛ فما أنا الا فى
 مقصورة الحياة أشهد منها الرواية فأبكي للمنظر المؤلم وأطرب
 للحن الجميل ، ولكننى لا أمثل ولا أغنى !
 وجلجلت فى سكون الليل دقائق ساعة قريبة عرفت منها ليلى
 أن الليل قد اتصف ، فأوت الى الفراش لتسبق الشمس الى
 النهوض .

٨

كان نومها هادئا ليلة البارحة نهضت منه مشرقة النفس
صاحبة المزاج ، وما لبثت طويلا حتى طرق بابها طارق وكان
معروفا لديها ... انها بائعة اللبن .

صباح سعيد يا سيدتى ... ان صاحبة المنزل أمرتني أن
أصعد اليك في كل صباح لتشتري منى . فكوني مطمئنة الى
سلامة ما أقدم اليك ونظافته ، فأنا لست من اللائى يخلطن أو
يعششن .

ولم يكن المبيع شغل ليلى وانما كان شغلها البائع ... لقد
تفرست كل جارحة من جوارحها وتأملت كل شىء فيها ، وهمت
أن تقبلها لولا أن يقال : انها مجنونة .

لقد رضع هذا الفم ثديا طاهرا رضعته ، وتأملت هذه العيون
فى غرارة الطفولة وجها تأمته ، واستلقى هذا البدن الجميل فى
حجر طالما رقدت فيه . لكنها لم تزد أن قدمت اليها الثمن قائلة

لها : مع السلامة . ومن يدري ؟ لعلها كانت تقول بعدها :
« يا أختاه » بصوت خافت كأنه مناجاة الضمير !

ولم يشهد أى صباح فى شهر كامل من هاتين الفتاتين أكثر من
تحية لقاء وملء اناء وتقديم ثمن وتحية وداع . على أن القلب
مفعم واللسان صامت . ثم جاء اليوم الذى تحدثتا فيه .

كان ذلك صباح يوم جمعة وقد تأخرت كوكب عن ميعادها
ولم تمر على ليلى الا آخر الناس . وما فرغت من صعود سلمها
وطرقت بابها حتى ألقتها ليلى متعبة لاهثة . فتحرك فى قلبها كنز
حنان أو دعتة اياه أمهما المشتركة فقالت لها :

— لا ... ليس المهم أن آخذ اللبن ، انما المهم أن تستريحى .
تعالى هنا فليس عندى أحد ، واجلسى حتى تثوب اليك القوة .
والتقت عينان سوداوان بعينين خضراوين لتسألا عن السبب .
انه عطف كبير من فتاة خلقها عظيم !

ولم تلبث أن دخلت وجلست على الأرض فأجلستها ليلى على
الكرسى .

— ان قلبك عطوف يا سيدتى فأنا متعبة حقا .

تصورى أنتى أقوم دائما فى الهزيع الأخير من الليل لأجلب
اللبن وأفرغه فى الآنية ، ثم أحمل انائى مع الفجر وأسير به الى
أن أنزل المدينة حتى يصادف يقظتها نزولى . فإذا ما فرغت
اعترضت عربة قهل أقتسم أجرها أنا وزميلاتى ، فتعود بنا الى
مكان قريب من قرانا . ومع هذا — حمدا لله — فأنا سعيدة .
ماذا عسى أن يأخذ الأحياء من الدنيا ؟ انها اللقمة والخرقة .

وبعد ، فليس للغنى أو للفقير من الأرض الا مقدار ما يشغل
ظهره ، فتساوى الملكيات هنالك ، وتساوى الرؤوس والمقادير .
وان حزنا فماذا يجدى علينا الحزن ؟ اذا فلنمرح ... أنا أقوم
لأحلب فأغنى ، ثم أسير فأنادى باللين كأننى أغنى ، ثم أركب
العربة فى عودتى أنا وزميلاتى فتألف من جمعنا فرقة تغنى
بأغاني قرانا . ولسنا يهمننا أن يطرب السامعون ما دمنا نحن
طربيات !

لا تسخرى منى فأنا أعلم أن كلامى لا يروقك . فيه جفاوة
الريف وليس عليه صقلة المدنية ... معذرة وشكرا ، وقد
استرحت وسأقوم .

— لا لا يا كوكب . ليست هذه بفترة كافية ، وأنا أظنك قد
فرغت من التوزيع وليس ورائى أنا من عمل ، فخذى قسطا
كافيا من الراحة فقد قلت لك : اننى وحدى ولن يزعجك أحد .
— ولماذا يعيش هذا الجمال وحده ؟ لو كنت فى الريف لحاطوا
جمالك بالهراوات والبنادق ، لكن حياطة الجمال فى المدينة عرضه
واظهاره . ولا شئ فى هذا يا سيدتى فلست مهاجمة ، وانما هو
اختلاف مذاهب .

— وأنت بدورك جميلة فلماذا لم يحوطوا بجمالك بالهراوى
والبنادق ؟

قالت ضاحكة :

— ما يستحق جمالى كل هذا .

فقال ليلى مداعبة :

— إذا فبالهراوى وحدها لا بهما كليهما .

— لغيرك الجهل ؛ فما جمال الفقير بمصون ... اننا نبتذل
الجمال والأغنياء يحوطون الدمامة . انه الرغيف أخفى القدم
ولوح الوجه وأرق الناظر ! ومع هذا فقد قلت : اننى سعيدة .
وان كنت شقية فلن يطول شقائى ؛ لأننى سأتزوج وسيحمل
رجل عبثا حملته الأنوثة !
قالت ليلى فى حزن :

— ولا بد من رجل يحمل عبء الأنوثة !

— هذا ما تقتش عنه كل فتاة ، فمنهن من تجعل الحفر وسيلة
اليه ، ومنهن من تتخذ التبجح اليه وسيلة . ولكن الأولى ظافرة
على كل حال ، والأخرى ظافرة فى حالة واحدة .

— لقد رضعت الحكمة فى لبان زينب !

فبدا على كوكب دهشة وذهول .

— لا تراعى فأنا أعرف قصتك وأنت تعرفين مصدرها وهى
قصة شريفة .

— آه ... لا بد أنها صاحبة المنزل ... لا شئ فى هذا . اننى
سأزف قريبا ان كان فى هذا ما يشين يا سيدتى . ولكن لماذا ؟
سأساعد زوجى ان احتاج الى ساعدى ؛ فهذا دستور القرية ،
وليس علينا فيه من عار .

فتألمت ليلى لأنها أحست أنها آلمتها ، وان كان اسم أمها قد
أفلت من فمها دون أن تحس لأنها أم مشتركة . ولكن ما كانت
كوكب تعلم بهذا .

فقلت ليلي :

وأنا أعيش وحدي من أجل الرغبة ، وقد أحفى القدم ولوح
الوجه وأرق الناظر ... الا أنتى غير سعيدة .

— يا الهى ! قد كنا نظن أن الشقاء فى الكوخ وحده وأن وراء
الزجاج اللامع والستائر المسدلة سعادة كثيرة ، فإذا فى المدينة
أيضا أشقياء . ما كنت أظن أن النائم شقى والذى يسعى ليحبل
إليه اللبن سعيد ! انها فى القلب ... انها فى الداخل ... ليست
فى الفضاء ... فلنطلبها فى نفوسنا .

اأذننى لى يا سيدتى فى أن أنصرف فأنا أشعر أنتى غير
موفقة فى حديثى ، واغفرى لى ان كنت زلت ؛ فلم أزد على أنتى
بائعة لبن .

ولو كنت شاهدتها بعد قليل وهى تكد حنجرتها غناء بين
أترابها على ظهر العربة المكشوفة ، وتتخذ من اناء اللبن الفارغ
دفا توقع عليه الغناء لأيقنت أنها تبالغ فيما تأتى به لتثبت لنفسها
أنها سعيدة ، وأن ذكر الشقاء ومجالسة الأشقياء لم يمس سعادتها
من قريب أو بعيد .

ومضى الزمن وحث خطاه ولا يزال اناء اللبن فى حجرة ليلي
ملا كل يوم ، ولا يزال القلب مترعا واللسان صامتا والسر عند
طرف واحد .

وهذه كوكب كأنها الكوكب . أفرغت اللبن وقالت فى مرح
لمن ظنتها سيدتها :

سيدتى ... لا بد أن أجلس اليوم عندك لأنك لن ترينى بعد

اليوم ، أو على الأقل لن ترينى الا اذا حكم الزمن واستصرخنى
قرينى .

فوجئت ليلى وكادت عيناها تدمغان ، ولكنها تماسكت
وتكلفت الابتسام ثم قالت :

— اذا ستزفين قريبا !

— بعد غد ... خنائى غدا ليلة الخميس ، وزفانى بعد غد
ليلة الجمعة .

— يعز على ألا أراك بعد هذا !

— ما قالها لى أحد .

— لأنك لم تقولى لأحد (وكان فى الحق أنى تقول : لأنك
لست أخت أحد سوى ، لكنه سر ضنت به) .

— لن أشتري من أحد لبنا بعد اليوم ؛ لأننى ألفتة مقرونا
بذلك الوجه .

— انه عطف كبير يا سيدتى .

وهمت بالانصراف .

— يحزننى ألا أراك .

وقبلتها قبلة وهى عند الباب . فقالت فى خجلة ودهشة :

— ترى ما الذى ربط بينى وبينك هكذا ؟ اننى يا سيدتى

لست من أندادك .

— لا شيء ... لا شيء ... انه ... انه اللبن .

ولم تفهم صاحبتهما ما تعنى ، واختفى الى الأبد من أفقها

نجم الأخوة الضعيفة ، وخلف وراءه حرة قوية .

فما أعجب قلب الانسان وما أغمض سر الله فيه ! يربط بينه وبين الدنيا شخص واحد ، ويفصل بينه وبين الدنيا شخص واحد فان وجده وجدها وان فقدته فقدتها ، فهو لا يراها الا بوسيلة .

لم يخلق مضيئاً بطبعه ، انما يستمد النور من غيره . حساس اذا سكن ، مصمت اذا خلا ، لا يزيد على أنه قبضة من الخبز . يصبح المرء أوعى فيرى الدنيا على غير ما كان يراها وهي هي لا شك لم تتغير ، غير أن انسانا واحدا بدلها في نظريه ، وكأين من أناس غابوا قبل ذلك اليوم فلم يبدلوا فيها شيئا ، لأن قلبه ما كان يراها بهم ولا كانوا هم وسيلته اليها . ومن الغريب ألا يغيب شاغل القلب جملة واحدة ، انما يجز وراءه ذيو لا نسميها الذكريات هي صفوة ما يعمله المحبوب من كل معجب مشتهى ، تكون شريطا متلاحق الصور لما مثله الأليفان على مسرح الماضي ، غير أن الابتسامة فيه دمعة ، والرقصة فيه صرعة ، كأن الرواية مثلت في جنة ، وعرض شريطها في جحيم !

كن أربعا جمعتهم في المستشفى حجرة حين هذا الليل
وهادنت الجراح النزلاء . التفقن حول منضدة واتكأن عليها
بحرافقهم ومالت بعض قلائسهن الى بعض حتى تدانت الرؤوس .
ولو أن مارا رآهن في مجلسهن هذا ما شك في أنهن يدبرن
أمرا خطيرا .

وقالت احدى الجالسات بصوت خافت :
- لقد جئنا في الزمان والمكان كما أمرت يا سيدتى الرئيسة
فلعلك تكلفينا خدمة نسد بها بعض فضلك الذى غمرت به
ثلاثتنا منذ دخولنا المستشفى !
وبدا على الاثنتين الباقيتين اهتمام كبير ، وتلفتتا ثم قالتا :
- بلا شك .
وازداد ميل الرئيسة عليهن وبدأت تهمس :

— أتن واثقات من أنكن بنياتي . وأنى أضع مصالحكن فوق كل اعتبار ، فضلا على أننى بعيدة النظر أرى من الأمور ما لا ترين ولا يخفى على ما وراء الجدار . وانا جميعا فى هذا المستشفى مهددات بفتاة واحدة ، فهى تقف فى سبيل رقيكن ، وتستأثر بالفضل والعطف وحدها دون أن نعرف لذلك سببا .

وأتن علامات بأن الدكتور ك ... رجل طيب القلب ، يبعد عليه أن يغير فكرة كونها عن شخص الا اذا ثبت له بما لا يمارى فيه أن فكرته مبنية على أساس واه ضعيف .
أما الفتاة فهى لىلى اللقطة ، التى أسرت بجمالها وبرقة أجادت تكلفها قلوب النزلاء ، وقلوب الأطباء . والدينا يا بنياتي كفاح وجهاد ، وأنا من اللائى يؤمن بأن الغاية تسوغ الوسيلة . فعلينا أن نتعاون على اخلاء الطريق منها ، والا بقيت عقبة كئودا فى سبيلنا .

ومثل هذه الفتاة لن يقفل فى وجه جمالها باب ، فنحن لن نرتكب أمرا جسيما ، فان فى وسعها يوم تغادر هذا المستشفى أن تشغل مكانها فى مستشفى آخر ، أو فى أى مكان تشاء .
أما بقاؤها ، فأتتن ترين : لها من الدكتور ك ... العطف والعلاوات ولها من النزلاء النفحات والهبات . وأعرب ما رأيته أنها فى هذه الأيام لبست ثوبا من الكبر لم أره عليها فى يوم مضى من أربع سنوات خلون ... ولم أطرح عليكن هذا الذى أقض مضجعى الا لثقتى بكن ، وأملى فى أن تمددن يد المعونة

الى أنفكسك قبل أن تمددنها الى . فليلي شبح مفزع وكابوس
ثقل .

قالت احداهن :

— هو ما تقولين يا سيدتى الرئيسة ، والأمر اليك ، فانظري
ماذا تأمرين . ونحن ظل لك ونثر لآياديك الحسان !
وحبكت أطراف البديسة ، وعرفت كل مثلة دورها ، ولم
يبق الا أن يرفع الستار ؛ ليرى من في المستشفى قصة دبرت
بليل .

كانت ليلي ولا شك نائمة في سريرها ملكا طاهرا تطوف
حولها أحلام لذيذة ، أو ربما كانت تنام بلا أحلام ، ولكنها لم
تكن تدري أن أمورا تجري في أمورها ، وأن نيات خبيثة
سلطت على نيتها البيضاء ، وحركة ظالمة سرّت في سكونها
الراضى البريء .

ومضى يوم ويوم وأصبح صباح ، فلبست ثوبها ، ورجلت
شعرها ، وأخذت سمتها الى المستشفى ولم تدرك أن الشؤم
كامن فيه ، وحيث فيمن حيث أولئك اللائى اجتمعن بالأمس ،
وكن ييسمن كأنهن لم يدركن في أمرها حديث سوء !
والتقت بها أحلام واستقبلتها باسمه :

— صباح جميل لتلك الطلعة وحظ سعيد لذلك الجمال !
لقد أصبحت يا ليلي كزهرة طلها الندى ... حصنتك بالله من
كل عين !
وضحكتا متصافحتين .

ثم مالت عليها أحلام قبلها ، فقالت ليلي :
 - لكأنا على سفر ... ما يلد سواد الليل كل هذه الوحشة
 يا أحلام !
 فقالت :

- ما هكذا يكون جزاء القبله ! أنت رزينة أكثر مما يجب ،
 ولن أقبلك ثانيا الا اذا طلبتها منى ، وان كنت غير راضية بهه
 فرديها الى أكن شاكرة .
 وعرضت صفحة خدها الأسمر في خفة ورشاقة فقبلتها ليلي
 وهي تقول :

- اليك أعذب منها . قبله وربحها .
 ثم خفت كل منهما الى العمل .
 وكأما كان هذا الموقف بينهما وداعا قبل ساعة الوداع
 وكثيرا ما يقف الناس من أحبابهم مواقف غريبة يفسرها الزمن
 بعد ذلك ، فيعزونها الى احساس القلب وصفاء النفس !
 وحمى وطيس العمل ثم هدأ ساعة الغداء ، وأفرخت الفتنة
 في تلك الفترة الوجيزة ، وتغدت ليلي فأكلت في غدائها آخري
 رغيها لها هناك .

وطلبت الي الدكتور ك ... ولم يكن هذا شيئا غريبا عنها ،
 فأسرت اليه ودخلت عليه ، لكنها ذعرت وكادت تتراجع حين
 رآته مبردا الوجه مقطب الجبين . وحدثها قلبها أن هذا بسببها ،
 فوقفت وفتحت فيه عينيهما الواسعتين كأنها تسأله ، فأشار
 اليها أن تجلس ، ثم أمر فأغلق الباب .

— لقد سمعت أمرا عظيما ...
وفتشت عن ريقها فلم تجده ؛ لأن الشبكة التي أدليت اليها
فابتسبتها من بين الحيتان بدأت تنزق ...
واستمر يقول :
— نعم انه أمر عظيم ... عزمت على أن أكتبه عنك لكنني
آثرت أن أواجهك به .
انك تعرفين بلدى ...
انها قرية ... بالقرب من القاهرة .
— نعم يا سيدى الدكتور .
— وتعرفين أنك التقطت من مزارع هذه القرية ...
فقال في وله وحيرة :
— أعرف هذا وذاك . ولكن ما الذى يربط بين هذين ؟
لا تمننى موتا بطيئا يا سيدى ، وعاجل الجرح بالمبضع فاني
لا أحتمل !
فقال في غضب :
— يا لك من فتاة رقيقة ! انكن دائما تسترن العيوب بكل
ما ينطلى على الرجال من زور وبهتان . (وحضرته شهادة زوجه
فيها لأن الوقت كان مناسباً) . رفضت أمامى السوار الذهبى
يوم كنت خارجة من الملجأ لتضربى لى مثلا من العفة والقناعة ،
ولتثيرى فى نفسى عطفًا واعجابا . فلما آويتك وأسبغت عليك
نعمتى كهرت بى وزعمت أننى أب لك ، وأن فى اتحاد المكان
دليلا على هذا ، واننى انما كنت أزور الملجأ لأنك أنت فيه ،

ولم يكن اختياري لك ممرضة في مستشفى عبثا ولا لهوا ،
 إنما هو بر خفي يصل الأب به ابنته من حيث لا يعلم الناس .
 فكيف تجرئين على أن ترجمي المحراب بالحجارة ، وأن تدنسي
 بياض حياتي بهذه القرية الكبيرة ! وأنا الذي تعلق قلبي
 بالمسجد وأنا شاب فلم أقترف خطيئة ؟ لا لا ليس في وسعي
 أن أحتملك بعد اليوم ، فاعزبي عني فأنا في غنى عن خدماتك .
 ودارت بها الأرض الفضاء ، وغشى عينيها سهاير حتى
 لم تعد ترى شيئا ، وإنما بدت أمامها الدنيا أشباحا تتراقص .
 ولم يكن هناك بد من البكاء فبكت ، ولكن الدموع كانت
 سلاحا مفلولا ولما أفاقت قليلا تكلمت :

— هل يسمح سيدي بأن يعرفني مصدر هذا الخبر ، ثم
 لعله يتبين له بعد ذلك زور ما ادعوا !
 — مصدر الخبر ؟ أناس كثيرون . ان المستشفى كله يعج به...
 ولكن أنا آتيك بمصدره .

وضغط الجرس فجاءه خادم ، فقال له :
 — الى بفلائة .

ودخلت إحدى الثلاث اللاتي دبرن المكيدة ، وكانت لسوء
 الطالع أكثرهن مكرما ودهاء . وبسط الطبيب الاتهام وزواجهما
 بيللي ، فاتجهت اليها بوجه هادئ صفيق ثم تنهدت واتجهت
 الى الطبيب ثانيا وقالت في تناله :

— ما كنت أظن أنك ستغضب هكذا يا سيدي الدكتور .
 ولا كنت أظن أن فيه لليلى ضررا . وبقيّة الشهود معروفون

والمستشفى كله يعلم ، ولعلها ألفت بهذا الخبر الى أناس
سوانا ... وهذا كل ما عندي ... أعندك ما تقولينه يا ليلي ؟
وأجهز موقف تلك الشاهدة على ما أبقي غضب الطبيب من
قواها ، وتخيلت غدها فأظلم في عينيها الوجود ، وخانها
الحزم ، وتخلي عنها الجلد والتماسك ، وأقلت من يدها الزمام
فلم تستطع للمصيبة دفعا . فلم تزد على أن قلبت فيهما عيني
دامعتين وقالت :

— لم أقل وإن ثبت لديك أنني قلت ...

وطرقت الباب يد سريعة لم تنتظر صاحبها حتى يؤذن لها ،
ففتحت ودخلت ، ولم تكن سوى امرأة الدكتور ك ... عرض
لها أمر فجاءت .

وبادلت زوجها التحية ثم جلست ؛ وضحكت الأقدار من
دخولها على ليلي في هذه اللحظة الحاسمة .

وأذن للشاهدة بالخروج ، وتبادلت المرأتان بمشهد من الطبيب
نظرات الحقد والكراهة ، وألقى على النار حطب كثير فاتشر
اللب وتكاثف الدخان حتى عجزت ليلي عن تلمس الطريق .
ورأتها زوجة الطبيب دامة . فضحكت في تهكم وقالت :
— ماذا هنالك ؟

قال الطبيب وقد عاد اليه شيء من كرمه :

— لا شيء ... الا أنني استغنيت عن خدماتها ... تستطيعين
أن تخرجي يا ليلي ... سلمى كل ما في عهدتك الى كبيرة

المرضات ، ثم اذهبي الى كاتب المستشفى لتأخذى بقية حسابك . وتفضلى غير مطرودة .

فسارت ليلى ولم ترفع اليهما طرفا ، ولم يكن هناك مجال للجدل ولا للكلام على مسمع من تلك التى تعرف طويتها . ولو أنها نظرت خلفها وهى خارجة لآخر مرة من هذه الحجرة ، لرأت سيفاً مسلولا من عيني هذه المرأة التى كرهتها تطوعا واحتسابا . لكنها لم تنظر لأنها لم تعد يعنىها شيء .

ودعت الحوادث شبيهاً فذكرت يوم ملجأ ج ... حين ألقت على جدر المستشفى اللامعة ودهاليزها الطويلة نظرة أخيرة . ثم اتجهت الى السماء داعية : « رب ارفع عني لعنة أبوى فانها تطاردنى فى كل مكان » .

وسلمت ما عندها ثم تسلمت ما لها ، وأمست غريبة عن هذا المكان الذى كان لها بالأمس شأن ورزق فيه . وطافت بمن بدا لها أن تودعهن فسلمت فى صمت ، وكان بعض المسلمات يعتقدن انها بريئة لكنهن لا يملكن لها شيئا . والتقت بها أحلام لآخر مرة فدمعت عيناها وبرقت ثناياها ببسمة ساخرة .

— لكأنا على سفر ا قلت لك ذلك فى الصباح ا بل انا على سفر يا أختاه فلست زميلتك بعد اليوم .

فأجابت فى جزع :

لقد عرفت كل شيء . واذا فلن أراك بعد اليوم

— تريننى فى مسكنى وأنت تعرفينه ... وداعا يا أحلام !

— وداعا يا ليلى !

وكانت قبلتان قبل الصباح ، لكنهما كانتا حزيتين .
 لم يسر وراءها أحد كالיום الذي خرجت فيه من الملجأ ،
 ولم يدع لها أحد بالتوفيق ، ولم تدمع عليها الا عيون قليلة .
 وخيل اليها أن تحطمها محقق يوم ترتطم بالدنيا من جديد .
 كانت ساهمة الوجه شاردة النظرات حين عبرت فضاء الحديقة
 وهى فى طريقها الى الباب . ولو أنها التفت خلفها أيضا فى
 هذه المرة لرأت أربع نسوة فى أربع نوافذ ينظرن من وراء
 الزجاج الى ضحية تمشى ، غير أنها لم يقدر لها أن تلتفت حتى
 أجازت الحديقة ثم صر باب المستشفى الحديدى واقتح لتخرج
 منه فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، دخلته منذ أربع سنوات .
 وصر ثانيا وأغلق ، وأطل من بين قضبانه الحديدية المتباعدة
 وجه نوبى قال صاحبه بلهجة نوبية :
 — مع السلامة ...

وكان آخر ما سمعته من هناك !
 ولا يزال مستشفى الدكتور ك ... فى حيه الهادئ .
 ولا تزال حديقته تحمل الى الناقهين العطر والثشا
 والنسيم ، ولا يزال ممرضوه يروجون ويجيئون ، ومرضى
 يدخلون وآخرون يخرجون ... وكل شئ فيه لم يتغير ...
 الا أن ليلى لم تعد فيه !



أنا التي خلقت وحدى كأننى حواء هذا الزمن ... !!

القسم الثالث فترة بلا عمل

شملتها غرفتها ككل ليلة ... الا أنها ليلة كئيبة .
كانت غائرة النجم خافتة الشعاع ، موحشة الجوانب عابسة
الظلام ... في نظرها على الأقل !
ولم يكن في الدنيا شيء يبسم ، ولو أنها بنت الزمان البرقة
التي ترضى بكل شيء فيه ، وفكرت في الماضي الطويل :
— لقد كان لذيذا على أنه متشابه الأيام ، واللذة عند المروع
مرادفة تماما لمعنى الهدوء .
فقالت في نفسها :

— ألا ليته يعود ! لكن عجلة الزمن تدور دائما الى الأمام ..
وحسبت مدخرها فألفته قليلا :

فقالت :

— لا بأس ! أختصر تفقاتي الى نصفها ، ولا أشتري شيئا من
الملابس وحسبى منها ما عندي ، ففي تلك الحقيبة الكبيرة التي
تحتل ركننا من الحجرة ما يكفيني نصف عام ... وهل أتبطل

تصف عام ؟ لا أظن ! وان تبطلت فلكل غد رزق مع الشمس
يطلع . أما العجوز فمن السهل على أن أؤدى إليها أجر حجرتها
أول كل شهر . ومن السهل أن أدعى فى الشهر الأول أننى فى
راحة . وفى التطريز أو فى القراءة ملهاة كبيرة .

وزارت منزل السيد الأمين ولم تكاشفه بأمرها ، بل كانت
ضاحكة الثغر منبسطة الأسارير كأن شيئاً لم يعمل فى نفسها .
وردت كتاباً وأخذت كتباً . وبدأ على الشيخ سرور الظافر
لتحييه القراءة إليها . ولم يدر أنها اتخذت من كتبه تسلية
حفيدة .

وأخذت الأيام تمر والسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ؛ لأنها
قابعة فى غرفتها منقطعة عن الذين ترجى لديهم الوساطة . كان
لا بد لها من أن تتكلم ، ولكن نفسها لم توافق بعد على الكلام .
وفتحت يوماً حقيبتها ، فوجدت بها ظهارة سرير جديدة لم
تقرش بعد ، وغطاءين أو ثلاثة كلها مما تسلت بعمله أيام الهدوء
فقالت :

— وما حاجتى الى هذا كأننى جهزته لزفاف أو عملته لترف ،
وما هذا ولا ذاك من شأنى ! ونزلت بها الى السوق ثم
عادت بثمنها . وعملت غيرها وغيرها وحصلت ثمنها ، ولكن المدخر
كان على الرغم من كل هذا فى هبوط وكلما عدت الجنيئات حلت
بقلبها الحسرات .

ومضى شهران وأحست العجوز بأن ليلى ليس لها عمل ، فلم
تسأ أن تجرحها ، كما أن ليلى لم تصارحها . ولكنهما كاتتا

متفاهمتين . وكانت تصعد اليها لتسمر معها ، غير أن السمر كان ثقيلًا على الفتاة ، فكانت تهمل كثيرا من الردود أو توجز فيما ترد به والابرة في يدها .

وكانت الحياة عبئا ثقيلا عليها ، وبدأ جسمها يهزل ، وكسا سحنتها شقاء العائلات وهي لا تفكر في شيء من هذا ، وإنما تتجه الى السبيل الذي تحصل منه القوت . وحذفت وجبة العشاء من طعامها ولو أن السهر كثيرا ما امتد بها ، ولكن مرور الزمن وضيق المورد أفزعها وحملها على الكلام .

وكانت ليلة في بيت السيد الأمين بعد مرور ثلاثة أشهر من فراغها ، وجلست اليه تتحدث . وتفرس الشيخ فيها بعينين قلما يفوتهما شيء ، فوجدها ضاوية ذاوية فقال :

— لعل نزلاءكم كثيرون في هذه الأيام ، فأنا ألح عليك دلائل الاجهاد !

فقالت في استحياء واطراق :

— ليس عندي نزلاء ياسيدى .

فرا به الرد ..

— صارحيني بحقيقة الأمر فأنا أب لك كما تعلمين .

— ليس لى عمل ، انه اجهاد فكر . وعلى كل حال فأنا أنفق.

من مدخرى يا سيدى الشيخ ، وهو كثير !

— وهل يدخر الناس ليتبطلوا دائما (وتجاهل أنه فهم ماعته،

فانها أرادت أن تنفى حاجتها الى المال) . لا بد لك من عمل ، ولا

يد أن يكون فن التمريض ، أتحين أن تكونى فى مستشفيات
الصحة ؟

— أو فى غيرها ... أنا لكل مكان !

ورأت فيه شخص منقذها فزاد اكبارها له ، ورأى فيها فتاة
مهيضة فزاد عطفه عليها . ثم حملها رسالة الى كبير هناك
يستوصيه بها خيرا ، ويشرح له فيها بلباقة وحسن أدب حاجة
ليلى الى العمل . وتسلمتها الفتاة بيد الشكر ثم خرجت الى
الطريق . وتمطت كالذى ألقى عنه حملا آد ظهره ، وأحبت الدنيا
ثانيا لأنها رأت أن لا يزال فيها معاقل للفضل ، ونامت نوم
المتفائل الهادىء ، ولم تطرز فى هذه الليلة ، لأن التطريز لم يعد
تسليه ، وكأنما قصدت بذلك الى أن تختتم بليتها تلك ليالى
التطريز .

وأصبح الصباح فكانت فى ديوان الصحة ، ورجعت منه
منشرة الصدر مقضية الحاجة ... حمدا لله ! انه لن يتخلى
عن أحد .

وبعد أيام طرق بابها ساعى البريد ليسلم اليها رسالة
مسجلة ، ودارت حولها صاحبة المنزل لعلها تكاشفها بسر تلك
الرسالة ، فأشبع الفتاة فضولها بأن أخبرتها أنها عينت
مرمضة فى مستشفى س ... الحكومى بالاسكندرية ، وأنها
لم يبق لها على تسلم العمل الا أربعة أيام . فبكت أو تباكت
وليلى فى شغل بأمرها غن بكائها .

ثم جلست تكتب خطابا ... ترى الى من تكتب ؟ الى أحلام

لترأها قبل أن تسافر .

ورأت نفسها في القاهرة ضيفة بعد أن ثبت لديها أنها سترحل عنها . سترحل الى بلد جديد لا تعرف فيه أحدا . وهذه آخر ليلة ستبيتها في وطن العيش .

كان الوقت أصيلا حين خرجت من منزلها ومرت على دكان الأثاث القديم الذي زارته هي وأحلام تشتري منه متاعها . وطلبت الى صاحبه اليوم أن يعود فيشتري أثاثه من جديد ، وذلك في صباح اليوم التالي وهو يوم سفرها ؛ اذ لم يكن من المستطاع أن تنقله معها الى الاسكندرية . وعرجت بعد ذلك على بيت السيد الأمين لتبلغ وتشكر وتودع . وكان لوداع ليلي وتلك الأسرة الفاضلة أثر بليغ في النفوس ؛ لأن هذين الزوجين تصورا فيها بنتا لهما ، فدعوا لها بالتوفيق وزوداها بمختلف النصائح وطلبا اليها أن تكتب اليهما عند استقرارها بخبرة اياهما بجميع شئونها .

وسلم الشيخ عليها السلام الوقور ، وقبلتها السيدة قبله صداقة .

٢

وعادت الى بيتها ودخلت الحجرة وأوقدت المصباح ، ثم
أخذت تمزل ما سيباع مما لا يباع وتجمع في حقيبة سفرها
كل ما تحتاج اليه ، وجلست بعد هذا تستريح .
وحانت منها نحو باب حجرتها المتفتحة ، فلمعت في ضوء
المصباح ورقة بيضاء مطوية النواحي ، حسبتها لأول الأمر
تناثرت مع ما تكاثر من المهملات ، لكن الورقة كانت تناديهما
لأنها طويت بعناية ، فقامت لتأخذها ، وفتحتها فقرأت فيها :
« أيتها الآنسة : هاأنذا قد بعثت بمن وضع خطابي تحت
بابك . فلا يهولك تهوسى وجنونى ، فأننى لم أعد أحتمل .
« كان من المستطاع أن تبادلينى النظرات مرة واجدة ،
ولكنك تفرين منى فرار الخائف المذعور مع أنى أعرض عليك
قلبا ما لطهارته من نظير . قلب لم يدنسه ملق ولا رياء ، من

حتى ابتلى بحبك وكان لا يعرف الحب . ولو كنت تعلمين أنك
تنامين تجاهي هادئة هائلة وأنا ساهر أتعذب ، ما هنا لك منام
ولا طابت لك أحلام .

« اذكرى — ان رفضت ردى — أنه ربما أتت لك ساعة في
المستقبل تعضين فيها الأنامل على وداد مرفوض وجيب
مطروود . ولك الاحترامى » .

وتلفتت حولها حتى لكأن عيونا كثيرة كانت تطالع الرسالة
من خلفها اختلاسا ، ثم مزقتها وأرسلتها مع الريح . ومن
يدرى ؟ لعل الحبيب المرسل شاهد قصاصاتها وهى هاوية الى
الأرض تتراقص . ثم ضحكت حين ذكرت حديث العجوز ،
وأيقنت أنها هى بنفسها الفتاة التى قذف بها الحب فى طريق
الفتى البائس فرددت ما ردت به عليها فى تلك الليلة : عفا الله
عن كل ذى بلوى وعافاه .

ولم تشغل هذه الحادثة من ذهنها أكثر من الزمن الذى
استغرقته .

ثم أخذت تسير فى الحجرة جيئة وذهوبا ، وتقلب فى جوانبها
طرفها لأنها لن توقد مصباحها بعد هذه الليلة . وأطفأت المصباح
واستلقت على السرير ... وهذه الحشية التى تحتها لن تمس
جنبها مرة أخرى ! وفى مثل هذا الوقت ترى أين تكون
راقدة ؟ وهكذا تتابع فى ذهنها سؤال بعد سؤال عن الغد
المجهول ، شأن من يودع عهدا ليستقبل عهدا .

وفرغت من تناول الافطار فى الصباح ، وجاء تاجر الأثاث

ولم تطل المساومة حتى عقدت الصفقة ودفع الثمن ، ورأت
المطلات من النوافذ في هذا الحى البلدى عربة يد يقف بجوارها
رجل ، ورأين رجلا آخر ينزل متاعا عرفن أنه من حجرة ليلي .
ودفعهن الفضول الى أن يعرفن بقية القصة ، فسألن صاحبة
المنزل ثم حوّلن واسترجعن . والتف حول العربة صبيان كانوا
يلعبون ... سمعوا من أمهاتهن في النوافذ أن المتاع متاح ليلي .
وقال أحدهم :

— أمى ساكنة الحجرة العليا من بيت خالتي أم ثريا ؟
فقال آخر :

— نعم هى ذات الحذاء العالى والثوب الزاهى الجميل . لقد
ذهبت لتزوج .

وزجرهم الرجل الواقف وفرق جمعهم ، ثم دفع العربة أمامه
بلا جهد ولا مشقة ، ورأته ليلي عر تحت نافذتها وأحد الصبيان
يعابته ويدفع العربة ، فابتسمت ثم عبست كأنها تقول : متاح
ليلي يحمله رجل واحد ، وهم ليلي يثقل الناس جميعا !
ومرت فترة ونزلت ، ثم عادت بحمال ليحمل الحقيبة الكبيرة
وسار أمامها وسارت خلفه ، وودعتها عند الباب صاحبة
البيت ، وخرجت الى الحارة وراء الحمال فاعترض سبيلها
الصبيان السابقون .

وقال أحدهم :

— أحقا أنت ذاهبة لتزوجى يا سيدتى ؟
فربتته وابتسمت قائلة :

— نعم وسأبعث اليك بالحلوى .

فقال الثانى :

— لا تصدقوا يا أولاد ؛ فانها ذاهبة الى أمها .

فمحت مرارة الأخرى حلاوة الأولى ، واستمعت الطيرة على
الفأل ، فلاطقتهم حتى أرجعتهم ولحقت بالحمال . وبلغت آخر
الشارع الرئيسى من حيها البلدى ، فألقت اليه بنظرة وقالت :

— وداعا ... لقد كنت هادىء الأيام !

والتفتت الى الطريق فاذا بصاحب الرسالة أمامها وكان
عائدا الى منزله ، فلما رآها على هذه الحال ألهم أنها على سفر ،
فعراه دعر وجزع ووقف فى سبيلها سائلا فى دهشة :

— الى أين يا ليلى ؟ أأنت على سفر ؟

ولم تجد بأسا فى أن تعجب ؛ لأنه أمر لا يترتب عليه أمر :

— نعم أنا على سفر .

وسارت فسار بجوارها والحمال أمامهما الى محط الترام .

— ألم تصل اليك رسالتى ؟

— بلى . وصلت الى من تحت الباب !

— وماذا ترين فى هذا ؟

— أنا لم أسلم بوجود شيء حتى أبدى رأيى فيه . وان كان

لا بد من رأى فلقد اخترت أن « أعض الأنامل على وداد

مرفوض وحبيب مطرود . ولك احترامى » .

— انتى سيىء الحظ !

— لو حسن حظك لساء حظى .. لقد فاتك القطار. معذرة..
 لم يفتك شيء ؛ فانه لا يقل أحدا .
 — والى أين تقصدين ؟
 — الى حيث لا تعلم .
 فتوقف عن المسير فجأة وقال فى يأس :
 اذا وداعا !

ولكنه لم يسمع الرد .

ودوى صفير القطار ولى الى النافذة تنظر الى أرض بلد
 قضت فيه سبعة عشر عاما . بلد كان عزيزا عليها ؛ لأن عينيها
 فتحت على الحياة فيه ، وان لم يكن لها فيه أهل ولا سكن .
 دخلت القاهرة ولم يشعر بها أحد ، وما هى ذى تغادرها
 وما يودعها أحد ، وستدخل الاسكندرية ولا أحد فى انتظارها
 كذلك . فلا فرق بينها وبين القطار الذى يقلها ! انها واياه
 ما لهما من وطن ، وكل بقاع الأرض عندهما سواء .

وبدأ القطار يتحرك والناس على الرصيف متشبثون بنوافذه،
 ويحثون الخطا بجواره ، ويتفننون فى القاء كلمات الوداع على
 المسافرين ويذكرونهم بمهم الأمور فى تلك اللحظة الأخيرة — الا
 شباك لىل فانه لم يكن فى اتجاهه أحد . وخف القطار قليلا فى
 مسيره وحانت من المسافرة التفاتة . فرأت فتاة تعدو ملء
 ساقها ، وتلوح لها بتمديد وتقول : « مع السلامة » والصوت
 لاهث والنفس مبهور ، ولم تكن سوى أحلام جاءت لوداعها

فسبقها القطار . فلوحت ليلي بمنديلها هي الأخرى ، وزادت سرعة القطار فحجزت بينهما . ورأى الواقفون على الرصيف هناك كلا منهما وقد وضعت منديلها على عينيها لتكفكف به دمعة مسفوحة .

ورجعت أحلام وهي تتمم :

— ليتنى بكرت قليلا !

وكانت ليلي ترد على تمنيتها حين كانت تتمم وهي على كرسيها في الدرجة الثالثة : هكذا حظى ولا ذنب لها ... ولو بكرت أحلام لبكر القطار بالقيام !

وغابت عن بصر الناظر أرض العاصمة ، ومر محط ومحط والذهن شارد والعينان شاخصتان . وزايلتها فرحتها بعملها الجديد بعد تلك البطالة الطويلة ، وحل محلها قلق من المستقبل ، ولو كنت جالسا على الكرسي الذي أمامها ورأيتها وهي مسندة ظهرها الى كرسيها ومرسلة ببصرها من النافذة الى الفضاء — لأيقنت انها من الفتيات اللاتي تنزعهن الطوارئ من أحضان آبائهن وتهدف بهن الى مكان بعيد ، وما خطر ببالك أبدا أنها لا أهل لها على الرغم من أنك لم تر في وداعها أحدا .

ثم مر محط وهدأ القطار لقربه من آخر ، وسمع «التذكري» ينبه الركاب الى تسليم التذاكر قبل النزول ، فأفاق ليلي من شرودها على اسم هذا البلد ، لأن له ذكريات في ذهنها .

نعم هو بلد الدكتور ك ... وهو بالتالي البلد الذي التقطت من مزارعه . فنهضت من مجلسها لتلقى نظرة على مسقط

(لقيطة)

رأسها ولترى أول مكان بدأت منه قصتها . ولم تعرف بالطبع
البقعة التي وجدت فيها ولا الشجرة التي كانت تحتها ...
ولكنهما كاتتا منها على مرمى البصر .

ولما وقف القطار رأت نازلين ورأت صاعدين ، ورأت غير
هؤلاء وهؤلاء واقفين على المحط ، وعاملين في المزارع وسائرين
في الطريق ، وكلهم ولا شك من أهل هذا البلد .

وقالت تحدث نفسها :

— لعل أبى أو أمى بين الذين أرى ... لعل أمى تلك الملففة
التي وراءها الخادم ، أو تلك السافرة التي ستسافر وحدها ،
أو تلك التي تنادى على الفاكهة !

ولعل أبى هذا السيد الذى يركض بجواده أو هذا الذى
يعمل بالمحراث ، أو صاحب هذا المقهى القريب من المحط ...
كل هذا جائز ، وجائز ألا يكون لى أبوان فى هذا البلد ولا فى
أى بلد آخر ، فربما كانا من تحت التراب !

ولما لم تصل الى نتيجة زفرت واسترجعت . وصفر القطار
ليسير فغطى على الاسترجاع والزفير فلم يسمعه أحد من
ورائها .

وبقيت عيناها عالقتين بوطن أنكرها ، والقطار ينهب بها
الأرض ، حتى توارى عنهما التخيل !

الفصل الرابع في مستشفى س... الحكومى

هذه مدينة الاسكندرية ...

وقف القطار فيها باعثاً من مرجله بتفاريق بخار كأنها آخر أنفاسه ، بعد أن قطع تلك المرحلة الطويلة .

وانزلت أمتعة من النوافذ والأبواب بأيدي المسافرين والحمالين ، وانزلت حقيبة ليلى الكبيرة التى حوت كل ما تملك فى الدنيا من شىء ، حتى خصلة شعر أمها الذهبى .

ولم تُقف على الرصيف الا ريثما حملت الحقيبة ، لأنها لم تشغل بسلام ولا رد . ثم كانت خارج سور المحط فسألت الحمال عن أقرب نزل لتنزل فيه ، واستعانت بآخر ليوصلها اليه ويدلها عليه .

وقضت فى الفندق ليلة قلقلة غير مأمونة ، لأنها بيته ما ألفتها مثلها . وتنفس الصبح فتنفست الصعداء وتناولت ما قدم اليها من افطار ، وهبطت السلم لتذهب الى المستشفى .
لم يصادفها أحد من الخدم فى طريقها وهى نازلة ، ولا فى

البهو السفلى وهى خارجة ؛ لتسأله عن الطريق الذى تسلكه الى مستشفى س ... ولكن رجلين كانا واقفين قرب الباب. عرفت فى أحدهما صاحب النزل فلم تجد حرجا فى أن تسأله :

— صباح سعيد يا سيدى .

— صباح سعيد يا آنسة .

— أنا نزيلة الغرفة رقم ... وأريد أن أعرف الطريق الى مستشفى س ... فأنا قاصدة الى هناك .

فنظر صاحب الفندق الى الشاب الذى بجواره وابتسم وقال هامسا :

— مصادفة غريبة .

ثم التفت اليها وبدأ يشرح لها معالم الطريق وهى واقفة أمامه وكلها اصغاء ، حتى اذا انتهى شكرته وبدأت تسير . ولكن الشاب استوقفها بقوله :

— لقد فاتنا أن نقول لك شيئا يا آنسة ... ويبدو لى أنك غريبة عن الاسكندرية ، وأنا ذاهب الى ذلك المستشفى وهضم سيارتى ، فهل تفضلين بأن ترافقينى الى هناك ؟

وكان حديثه مهذبا بريئا ، ولكن ليلى اعتذرت اليه :

— ان الترام مركب رخيص ... شكرا لك .

وسارت فتبادل الواقعان النظرات .

وقال صاحب الفندق :

— لا يزال فى فتياتنا متحفظات أو جامدات ! ما كان ينبغى

لها أن ترفض المروءة !

وشق بها الترام شوارع الاسكندرية التى لا يعرفها فيها أحد ، وكانت سعيدة بأنها مجهولة . ثم ترجلت الى المستشفى حيث تسلمت عملها الجديد وحيث بدأ الزمن فى تسطير صفحاتها الجديدة .

وعلم ذوو الشأن هناك بأن لها سابق خدمة فى الجراحة فكانت فى قسم الجراحة . ورأت الذين تدفع عنهم الأمة أجور العلاج بعد أن رأت الذين يدفعون لأنفسهم أجورهم ، فأحست بأن الفرق كبير ، وأن مهمتها هنا ستكون أشق وأصعب . وزاد اتساع قلبها الكبير فاحتوى المتألين على كثرتهم .

لم يكن اليوم الأول قد مضى حين وقفت ليلى بين زميلاتها الجديديات فى أحد أبهاء قسم الجراحة ، وحين بدا الاهتمام عليهن بذلك الملك الذى استقل أجنحته من الجنوب الى الشمال حتى هبط بينهن ، فلمع فى المستشفى جمال هادى كامل وقور . فبدأت سعاد تسألها ، كما يفعل الناس ، عن سابق عهدها بالعمل ، وعن وطنها ونشأتها . وكان على ليلى أن تجيب بالبساطة والهدوء كما يجب غير المزور . فنسجت لهن قصة سهلة المتناول :

هى أنها نشأت فى القاهرة يتيمة ورعتها أمها وأنفقت على تعليمها من مال قليل خلفه لهما أبوها ثم ألحقها الدكتور ك ... صاحب المستشفى الجراحى الخاص بالقاهرة بالعمل معه فلقنت أصول التطبيب زهاء أربع سنوات ، ولكنها لم تر فى وجودها معه ضمانا كافيا ، فساعدتها أحد الفضلاء من الذين تعرفهم فى

الحاقها بمستشفيات الحكومة . ولا تزال أمها تعيش في القاهرة وحدها في انتظار فرصة تنقل فيها بنتها إلى القاهرة لتعود في أحضانها .

قالت سعاد :

— ولكن شيئاً غريباً يبدو لى في أمرك يا ليلى ...
وسكنت قليلاً ، فحقق قلبها وخالت أنها تعرف أمرها . ثم
سكت الخفقان حين أكملت سعاد قولها :

— ليت شعرى لم عميت عنك أعين الخطاب ؟
— لا يزال في شبابى فسحة طويلة .
— ولكنك جاوزت العشرين فيما يبدو لى ، وما كان ينبغي
لليون أن تغفلك هذه المدة الطويلة .. ان نضجك ينادى على
نفسه !

— ليس يضيرنى أننى فت الأربعين ، ولكن الحق أننى في
السابعة عشرة .

ففتحن عيونهن جميعاً وتضاحكن وقالت احداهن :
— لا داعى للممارة .. أفترين من الحتم عليها أن تحمل معها
شهادة الميلاد ؟ ثم قالت سعاد فجأة وبصوت خافت :
— اسكتن جميعاً ... انه آت ... الدكتور جمال .
وتحولت كل فتاة الى مكان .

وأخذ يقترب من ليلى شيئاً فشيئاً وهى واقفة ، شبح شاب
سريع الحركة خفيف المشية ، نحيف الجسد ، ليس بالطويل ولا
بالقصير ، أسمر الوجه مستطيله ، صغير العينين نفاذهما . حتى

إذا كان منها على قيد خطوة نظر إليها وحياها . أفرغت وجهها
ما كان متجها إليه ، ولم تلبث أن فغرت فاهها : « يا عجبا ! ان
الدكتور جمال هو نفس الشاب الذى كان مع صاحب الفندق ،
والذى عرض عليها أن تصحبه في السيارة !
ردت تحيته في شيء من الارتباك والدهشة ، ولكنه قال باسم
ليذهب عنها ما ألم بها :

— ان التى جاءت في الترام ممرضة في مستشفى س ...
وما كنت أعلم ذلك .

— طبعا يا سيدى الدكتور . وليس للممرضات أن يجئن في
السيارات . وأنت تعلم ذلك .

ولمعت على شفيتها ومضة ابتسام وهى لا تزال مطرقة .
فضحك الدكتور :

— وما اسم تلك التى جاءت في الترام ؟
— يسمونها ليلي .

وسحره الحديث وبهره الجمال في الثوب الأبيض ، فاستمر
يسألها مداعبا :

— ليلي المريضة ؟

— بل الممرضة .

— وأين كنت قبل الآن يا ليلي ؟ لست أسألك عن المكان
الذى كنت تبئين فيه بالطبع .

— كنت قبل أن أنزل الفندق ممرضة في مستشفى الدكتور
ك ... بالقاهرة .

— لا بد أن تكونى ماهرة ما دمت تلميذة مثل الدكتور لك...
— شكراً لك ... اننى لا أستحق هذا الشناء .

ثم مضى لشأنه . وكانت سعاد على مقربة منهما فترامى الى سمعها طرف من الحديث ، وعجبت من هذا اللقاء الغريب ومن الاهتمام الذى أبداه الطبيب بهذه الطارقة الجديدة ، فتألمت لأنها كانت تكن له فى قلبها ما يشبه الحب ، وكان هو يعاملها بعطف يصيغ المعاملة فى بعض الأحيان بشئ من الاهتمام . ولم يكن فى أمرهما أكثر من ذلك ولا أبعد .

ثم مر بها فجياها وألقى اليها ببعض الأوامر وسار ، فرجعت تلك فورا الى ليلى لتسألها موضوع الحديث .
ثم قالت : انك تحسدين ... انه ما يكلم أحدا ... وهكذا كلمك من أول يوم !

ولم يكن هذا بين الفتاتين بداية محمودة . ولم تكن ليلى مهتمة بذلك الطبيب الذى ربطت بينها وبينه الحوادث من أول صباح شهداها فى الاسكندرية . فلم تربط حديثه بفكرة ولم ترتب نتيجة على مقدمه ؛ لأنها ما تفكر فى أن تتزوج مثله ولا تظنه يفكر فى مثلها . واذا فكرت وحدها فى الزواج رأت أنه شئ جائز الوقوع محتمله ولكن من ترى يكون زوجها ؟ وكيف يتقدم اليها ؟ وعلى أى الأسس يتفقان ؟ انها لا ترضى بالزواج الا اذا كان بخطبة عادية كالتى تبنى عليها البيوت فى الغالب . أما أن يكون عن حب فلا ؛ لأنها لن تلعب بجمره . شوهت كثيرا من الأيدي وأحرقتها . ولكن كيف يقع

الزواج الأول ؟ وهي التي لا يدور شأنها في غير رأسها وحده :
لا أب ولا أم ولا أحد يتولى عنها بناء بيت لها ، فلا بد أن تحصل
بيديها هي الملائط . وهنا تقع في المحذور وتقبل على ما أدبرت
عنه طيلة أيام الشباب ! اذا فلا حيلة ، انما هي زورق على غارب
الأمواج .

غير أن القدر كان يضع حجرا على حجر دون أن تحس بأن
البناء يقوم : فاهتمام الدكتور بها يزيد يوما بعد يوم ، وقد
قضى العمل أن يكونا معا في مكان واحد فهما قلما يفترقان ...
لا يلذ له أن ينادي غيرها ولا أن يكلف أحدا سواها بشيء .
وهي بجانبه دائما عند قيامه بأعمال الجراحة فلا يرى منها الا خفة
ودقة واخلاصا . وظن في نفسه أنه أحب عملها وهو لا يدري
أنه انما أحب شخصها . أما هي فكانت تحب فيه شيئا واجدا ...
كانت تحب فيه عطفه الواسع واهتمامه الكبير .

ولم تسرع الأمور في مجراها الهادي . يوما من الأيام طيلة
نصف عام ، فلم يحس هو ولم تحس هي بأن شيئا خارجا على
المألوف يجري في أمرها ، فكان الحب كان في دور «الحضانة» ،
في الصباح لقاء باسم وتحية مهذبة رقيقة ، وفي العمل جد ليس
فيه خشونة الجدد ، وتسامح وتباهل واقبال ثم حديث عادي
طليق يشتركان فيه ومن معهما من الناس ، فلم تح لأحد منهم
فرصة أن يعلق على علاقتهما بحديث — إلا اذا استثنينا سعاد .
فقد كانت المسكينة تأكلها النار ، ولكنها لا تستطيع أن تكلم .

٢

أراد القدر أن يعلى البناء فجمع بينهما بقاء غير مقصود .
 كان ذلك في أصيل جميل فزع فيه سكان المدينة الى البحر
 ليلقوا فيه بهموم النفس وآلام الحياة .
 اختلفت هنالك الطبائع ، فجعل كل يفعل ما يبدو له أنه
 سبيل تخفيف حمله أو كشف ضره : فهذا سائر وحده وتلك
 سائرة وحدها . وهذا سابح في الماء وذلك مستلق على الرمل .
 وهناك ضحك يترامى الى السمع من أفواه جماعة ألفتها
 الصداقة . وهذا همس بين حبيبين يحثان الخطو على الطريق
 ليفرا الى مكان آهدأ . وذلك رجل ساهم لم يستطع هواء
 الأصيل ولا ماء البحر أن يحجز بينه وبين همه - فتألفت من
 كل ذلك صورة لدنيا صغيرة تبصرها العين ويدركها الخاطر
 من غير سياحة ولا سفر .
 وكان لليلي على الشاطئ شأن غير الذى ذكرنا من الشئون :
 كانت واقفة وحدها متجهة الى الكون بكل ما فيها ، حتى

ما تحس دونه شيئا . وقد رمت ببصرها الى زرقة الماء وسبح
خاطرهما على تلك الصفحة المترامية ليكون عليها وحده كما
ليلى على الأرض وحدها . ولو رأيتها في موقفها لأيقنت أنها
تمثال لمفتون بالبحر لولا أن النسيم يداعب ثوبها الأبيض ،
ويسرع بذهب شعرها الى الوراء ... حقا لقد كانت خلقا
عظيما يطالع خلقا عظيما !

وأخرجها من سكونها ووحدتها وقع أقدام سكن وراءها
فالتفتت منعدرة لأنها تركت أماكن الزحام عن عمد ، وإذا
بالدكتور جمال وراءها وقد جمعتهما مصادفة ثانية . فحياها
وقال في بشاشة وابتسام :

— ترى في ماذا تفكرين ؟ أجيبى اجابة صحيحة .

— أفكر في البحر .

فأغرق في الضحك .

— تفكرين في البحر ؟ لقد أقرءونا ونحن صغار : أن فيلسوفا
اتجه الى السماء بفكره ووجهه ، وأعرض عن الأرض فسقط . في
بئر وهو سائر ، فكان هذا سبب انزال الفلسفة من السماء الى
الأرض ... أترأى يا ليلى تريدان أن تشغلى مكان هذا
الفيلسوف ، فتتلقى الفلسفة من اليايس الى الماء ونحن ما فرغنا
من مشاكل اليايس ؟

وأعجبها الحديث فابتسمت :

— ليس كذلك تماما يا سيدى الدكتور . انما لذلى أن أ طرح

فكرى الى باحة لا فكر فيها لكيلا يسبح مع افكار الناس ،
ففكرت في البحر .

— انك يا ليلي فتاة غريبة ، وما أخطأت اذ عددتك فيلسوفة.

كيف اذا كنت تفكرين ؟

— كنت أقول مثلا : أتحت هذا الماء سعادة وشقاء ، كما

فوق هذه الأرض سعادة وشقاء ! أم انهما وقف على من يعيش
فوق ظهر شيء ، كما نشقى على وجه الأرض فاذا ما دفنا في
بطنها استرحنا ؟ أقول : أيشقى السمك وغيره ويسعد كما
يشقى الانسان ويسعد ؟ واذا لم يكن لما في الماء سعادة ولا شقاء
فما أجدر بمن على اليابس أن يتمنى لنفسه تلك المسابح ، وأن
يهوى هذه الحياة ما دما قد حرمتنا السعادة المطلقة . ويسلط
علينا في بعض الأحيان شقاء مطلق . وما دما لا نرى على
الأرض شخصا واحدا يقول : « أنا في الأعراف . لبت شقيا
ولست سعيدا » . وانما ألفناه يقول : « أنا اليوم سعيد ، أو أنا
اليوم شقى » .

هذا ما كنت أقوله في نفسي يا دكتور ، فهل ترى خيرا من

هذه النزهة ؟

— أتعبت ذهني في تتبع المعاني ... ان ذهنك أمضى من

المشروط الذي تعميقه كل يوم ! وبعد ، فهذا كثير عليك يا ليلي
وقد فاجأتني بشخصية غريبة ... وكأنى بك تخملين هما في
نفسك ، ولست أدري أمن حقى أن أسألك أم أدعبك في هذه

الوحدة التي لا بد أن تحرق هذا الشباب كما تحرق شمس
الصحراء نباتا ظلها سلطت عليه ؟
وبدا على وجهه ألم وحيرة ، وبدأ قلبه ينبض نبضات غريبة
فاضت بالحنان والعطف واللهفة ، وأرسل إليها من عينيه
الدقيقتين بنظرات لا تطرف ، وحملت هي فيه بعينها
الواسعتين وقد ضرج الحجل خديها كأنها ندمت على أن
تكلمت ... ثم قطع صمتها بصوت هادئ خافت هدج الحنان
حين أقبل عليها يقول :

— ليلي ... هل تقبليني أخا ؟

ولكن أمواج البحر التي كانت تتهادى الى الشاطئ في رضا
وتؤدة ، همست في أذن ليلي : « احذري أن تصدقي . فان
الطبيعة أصرت على ألا تهيك أحدا ! »
فقالته بلهجة متطامنة :

— سيدى ... شكرا لك ... تذكر أنك تخاطب من هي
دونك ولا تنس أنني ممرضة وأنت طبيب . وأرجو يا سيدى
ألا يؤلمك قولى ، وان كنت حريصا على أن تعرف قصتى فأليك
قصتى وليست بسر : لقد مات أبى وأنا فى الثانية من عمرى .
ورعنتى أمى بما ترك لنا من مال قليل ، وعاشت لى وعلمتى
ما تستطيع ونحن فى القاهرة . ثم كنت ممرضة فى مستشفى
الدكتور ك ... وجئت منها الى هنا . ولا تزال أمى هناك تعيش
كما يعيش أمثالنا من الفقراء ، ولنا أقرباء فى الريف شغلهم
قوتهم عن ذويهم ألهاهم أمرهم عن أمرنا ، فنحن كما ترى

نعيش وحدنا وقد رضعتم في لبن رضعته أصول العزلة وحب الوحدة ، فأنا بين الناس أنا من الصور الناطقة التي تتوالب على شريط الخيالة ، أرى أمورهم جميعا ولا يرون من أمرى شيئا . هذه هى ليلى التى تريد أن تكون لها أخا .

فقال :

— ولم تعيشين فى الاسكندرية ، وتعيش أمك فى القاهرة ولا مصلحة لها هناك ؟

— انها فى انتظار قلبى اليها .

— ولم لا تنتقل هى اليك ، وكلا الأمرين سواء ؟

وذكرت أنه لا بد للعيش من زور وغرور ، وانه ما يجب أن يكون المرء صادقا فى كل ما يقول ، فتركت التاريخ يعيد نفسه . وقالت :

— ربما كان ذلك قريبا وكان خيرا ، فكل بلاد الله عندنا سواء . وزالت من الأفق الغربى آثار النهار ، وامتحت تفاريق شفق أحمر ، وأظلم الماء وتراقصت فيه أضواء المصابيح التى كسرتها الأمواج . فنظرت ليلى حولها وقالت :

— لا بد لى أن أعود .

وسارت فسار بجوارها . كانت صامتة وكان صامتا كأنهما يراجعان ما قالوا من كلام . وكانت هى الى البحر . وهو الى الناحية الأخرى ، ونشط هبوب النسيم فرمى بغدائر شعرها الطويل الى كتفيه فبعد عنها قليلا ، وواصلت المسير صامتة . ولو كنت شاهدهما وهى رافعة رأسها الى السماء وهو مطرق ،

وهى ساكنة الملامح وهو ساكن . وهى ممسكة عن الكلام
وهو ممسك . كأنهما يستمعان الى وقع أقدامهما على سيف
البحر - لأيقنت أنهما حبيبان دبّت بينهما جفوة أو فرغا من
عتاب وما وصلا الى صلح !

لقد ربطت قوة في الغيب بين هاتين النفسين ولم يشعر
صاحباهما ، وظنا أن هذه الغمرة غمرة جلال. وقد كانت نشوة
حب غير عنيفة . ودخل كل منهما في وجود الثاني . وإذا دخل
كائن في وجود كائن فقد ملك عليه كل شيء . وتكلم الطبيب :
- طبعا ستركيين الترام يا ليلي .

- الى البيت .. وأنت ؟

- أنا على ميعاد .

- أرجو لك حظا سعيدا . وداعا .

- وداعا (وسرت في حديثهما رقة النسيم) نسيت أن أقول
لك شيئا ... سأغيب عن المستشفى أربعة أيام لأننى مسافر
الى بلدى سأرى والدى ثم أعود ؛ لأننى ما رأيتهما من زمن .

- وأين بلدك يا سيدى الطبيب ؟

- بالقرب من الحيزة .

- اذا ستمر بالقاهرة ... سلم على البلد الطيب !

- غدا تحيين الاسكندرية .

- قلت لك : ان البلاد عندى سواء .

- ولم حننت الى القاهرة ؟

- لأنها شبه وطن ! !

فضحك :

— وداعا ثانيا .

— وداعا يا سيدى .

ثم سارت ولم تلتفت .

وأصبح الصباح وكانت فى المستشفى ، ولم يكن به الدكتور جمال ، فأحست أن شخصا قد غاب ، ولم تذهب الى أبعد من ذلك . واقتضت أربعة الأيام وكان اليوم الخامس ، فألفت نفسها تسرع الخطو وهى فى الطريق الى المستشفى ، وأحست أنها اليوم أكثر سعادة أو أنها مرتاحة على الأقل ... ترى لم هذا ؟

وتركت نفسها تفكر ورجعت بفكرها الى الوراء ، وتركت قدميها تسييران فأدركت شيئا جديدا . لقد كانت فى كل مساء غاب فيه تأوى الى فراشها فيعد ذهنها بحركة آلية : واحد ... اثنان ... ثلاثة ... أربعة . وما كانت قبل ذلك تعرف عد الأيام . ووقفت فجأة كأنما أشرفت على هوة . لهف نفسى ... لم هذا ؛ اننى منتبهة اليه ... وأخشى أن يكون هذا هو الذى يسمونه الحب ! اللهم ألهمنى الصواب فى كل ما أفعل وما أقول ، فقد رشد من أرشدته ، وقد غوى من كتبت عليه الغواية .

ولما التقت العيون هناك تفاهمت فى صمت على أن البعد لم يكن شيئا مريحا ، وتصافحا فأبقى يدها فى يده فترة غير عادية . وأوحت اليها الغريزة النسوية أنه يحبها ، فامتلات خجلا وخوفا وارتباكاً ، وسلت يدها من كفه بلطف . ودار دولاب

العمل وانتهى الطبيب من جراحة خطيرة نقل بعدها المريض الى سريريه ، ثم دخل الطبيب الى حجرته يتبعه ثلاث كن في مساعدته : ليلي وسعاد وثالثة .

قالت سعاد تطرى وتتملق :

— أهنئك يا سيدى الدكتور . ان الجراحة ناجحة ولا شك .
وسيدكر كل الأطباء فضلك بعد يوم واحد ، لأنك أنت وحدك
الذى أقدمت عليها ، ووثقت من نجاحك فيها .

— أرجو ذلك يا سعاد . وعلى كل فهذا أثر ارتياح أعصابى
لأننى عائد من الريف .

— حيا الله الريف وحيا جمال الطبيعة فيه ! لا بد أنك
استمتعت فيه بنزهة حلوة .

فاتجه جمال الى ليلي ، ثم وجه الحديث اليهن جميعا وقال .
— لست أنكر فضل هذه النزهة ، ولا أنسى أثرها
ما حييت ... ألا ترين رأيى يا ليلي فى أن هواء الأصائل ينظير
بالكرب ، وأن أنداء المساء تغسل عن النفوس الآلام ! ما بالك
ساکتة لا تتكلمين ؟

فابتسمت ليلي وأومأت بأنها توافق .

وتكلمت الثالثة ، فقالت فى استخفاف وانكار :

— ليلي دائما صامتة !

فردت عليها بابتسامة وهى تقول :

— وأنت دائما متكلمة ... أضيفى نصف صمتى الى كلامك
ونصف سكونى الى حركتك تكن منا فتاة معتدلة .

فقال الدكتور جمال :

— من ممكن تستطيع أن تحكم ؟ أعقل ليلي أمضى من لسانها ، أو لسانها أمضى من عقلها ؟

فقلت سعاد :

— نريد منها أولاً خطبة ومقالة .

قلت ليلي :

— إذا فلن تحكمي في القضية ... ما أنا خطيبة ولا كاتبة .

فقلت سعاد مورية :

— ربما تكونين في غد خطيبة .

وأودعت كلماتها كل ما تحمله من بغض . ثم خرجت ليلى الى شأنها وتبعتهما الفتاتان بعد قليل .

وجنحت شمس ذلك اليوم الى الغروب في أصيل جميل ، وماج الشاطئ ككل يوم بأخلاق من الناس ، ووقفت ليلى في المكان الذي تعودته ، ولم يكن يخطر على بالها أن النقاش الفاتت سيعود لأن المصادفة اذا تكررت لم تعد تسمى مصادفة . كانت جاعلة للبحر عينها وللنسيم غداؤها وأطراف ثوبها ، واختلط ذهب الأصيل بذهب الشعر . فألقى على الوجه روعة غير مألوفة . واتسع الصدر لينهب الهواء فبرز الى الأمام ، وشخص بصرها فلم تحرك رأسها فبدت أسالة الخد بأوضح ما تكون . ولم تكن قاصدة الى أن تعرض هذا الجمال وانما تولت الطبيعة عرضه عنها كما تفعل في تجميل الزهرة بالألوان قبل أن تجلوها للعين .

وسمعت ليلي صوتا مألوفاً يهتف في رقة ودعابة :
 - وترى في ماذا تفكرين اليوم ؟ أفى البحر أيضا ؟
 فالتفتت اليه في دعر جميل وقالت بصوت خافت :
 - أجبت أيضا ؟ أنا لا أفكر الا في البحر .
 فسكت قليلا ثم قال مشيرا الى حديث الصباح :
 - ولماذا لا تفكرين في الخطبة ؟
 - أنا لا أصلح أن أكون خطيبة .
 - وهل هناك من هى أصلح منك ؟ انك من اللائى تتوفر
 فيهن الشروط .

- ما أظن ذلك ، وأنا أعلم الناس بنفسى .
 وهنا اتجه اليها بكل ما فيه ، وتنفس الهواء طويلا كأنه
 سيفغوص تحت الماء ، وضرب يدا على أخرى وثركما
 متماسكتين قريبا من صدره ، ثم أنشأ يقول :
 - أصغى الى يا ليلي ولا تراعى من شئ . سأسألك فأجيبى
 بكل ما فيك من صراحة ، ولكن لا تستوضحينى سبب السؤال
 وسترين من النتيجة التى نصل اليها ما أرمى اليه . فدفق قلبها
 سريعا وخيل اليها أنها فى لحظة حاسمة من حياتها ، فابتلعت
 ريقها وقالت :
 - لك ذلك .

فبدأ يسألها وهى تجيب بسرعة وصراحة وبساطة :
 - كم يوما غبتها عن المستشفى ؟
 - أربعة أيام .

فضحك .

— لقد أخطأت في أول جواب ... انها خمسة .

— كلا يادكتور : السبت ، والأحد ، والاثنين . والثلاثاء ...
فهى أربعة .

— أعددتها قبل الآن يا ليلي ؟

— لست أذكر .

— اذا فلم تشعرى بأننى غبت .

— وكيف ذلك ؟ انك تترك فراغا يدركه جميع الناس .

— كنفس الفراغ الذى يتركه الدكتور رشدى مثلا ؟
فسكتت قليلا .

— لا تسكتى يا ليلي ... أجيبينى على البدهة .

— ليس الفراغان بمتشابهي .

— انك موفقة . وما المعنى الذى تحسينه نحو كل فراغ ؟

— ماذا أقول ؟ ... من الحتم أن أقول ؟ ... يخيل الى عند
ما تغيب أن شيئا مألوفاً لم أعد أراه . هذا ما أحسه .

— وهذا هو ما أفتش عنه ؛ لأننى أحسست فى الريف بمثل

ما أحسسته فى الاسكندرية : كل منا أحس أن شيئا مألوفاً
غاب عنه !

— يا لك من مدرس ماهر !

— ويا لك من تلميذة ذكية ! ولكن أتعلمين معنى الألفة

يا تلميذتى العزيزة ؟

فقلت بلهجة المتحدى وهى ترسل بالكلام بطيئا واضحة
كانها تخشى أن يفوته منه شىء :

— نعم أفهم معنى الألفة يا سيدى الدكتور فاستمع الى :
الألفة معنى لا يلام فيه أحد ولا يجر عليه أرقا ولا يخلف له
متاعب . هى اعتبار غير مؤذ لا يتشبث بالقلب ولا يتشبث به
القلب ولا تذرف العينان عليه الدموع . هذه هى الألفة كما
أحسها وأفهمها لا تزيد على أكثر من ذلك ؟

— لله أنت يا ليلى ... لقد فاتك أن تقولى شيئا آخر : ان
الألفة طفل يتزعزع ويشب ، فاذا ما كبر سمي اسما آخر .

— أتريد أن تقول لى شيئا جديدا ؟ أفهم ما تعنى يا سيدى
الدكتور ، وأنت شديد المراس وأنا ضعيفة . وربما كان من الخير
لى ولك أن يحلق كل منا فى أفق الآخر من بعيد ، فأنت شرق
وأنا غرب ، والشرق والغرب لا يلتقيان .

— ماذا تقولين يا ليلى ؟ يبدو لى أنك معلقة القلب .

— هو ما تقول .

— ولكن أغلقتة على أحد ؟

— نعم .

فقال فزعا مستعجلا :

— على من يا ليلى ... أصدقينى .

— على ليلى ... على نفسى وحدها أغلقت قلبى !

— هداك الله ! لقد ظننتك تحبين .

— عفا الله عنك فقد أفرغتنى .

— وهل يفرح أحد من الرضا والهدوء والسلام ؟
 — ذلك ما لا أستطيع أن أجيب عنه ولا أحب أن أجربه .
 — انه لا اختيار فيه لأحد ولا ارادة ... أترين هذه الأمواج
 التي تجرى الى الشاطئ مدفوعة بما هو خارج عنها ؟ كذلك
 شأن القلب يا ليلي في كل ما يدع وما يأخذ .
 علي أننى لست في حاجة الى أن أحمل العناء وايس يريحنى
 أن أحملك أنت عناء . فأنت كما تقولين مغلقة القلب دون الناس
 تعيشين في أفق نفسك . ويخيل الى أنك لا تفكرين في غدك
 ساعة من يومك كأنك ستغيين مع الشمس ولن تبعثى مع الفجر .
 أما أنا فلا أقول : اننى أحببتك حتى لا تنزعى لأنك فيما يبدو لى
 مستعدة لفكرة قديمة — وانما أقول : انك لازمة لى في حياتى
 فأنا أتقدم اليك خطيباً . على أننى لست من الذين تقلبت قلوبهم
 فأحبوا ثم هجروا أو أحبوا ثم هجروا ؛ فان أبغض شئ الى أن
 أبحث عن من يحمل قلبى عنى . وكانت غاييتى فى الحياة أن أبنى
 بيتى على غير حب كما تبنى معظم البيوت حتى لا أراع فى حياة
 الحقيقة بفقد ما كنت أتصور وجوده فى حياة الخيال — كانت
 هذه غاييتى ولكن القدر دفع بك فى طريقى فرأيت أنك ضرورة
 لى وأنتك ستسعدينى وأنا أيضاً سأسعدك ، فهل توافقين يا ليلي
 على ما أقول ؟

— أنا سأسعدك ؟ ما أظن أنها فكرة ستدوم ، ولا أننى أهل
 لأن أحظى بهذا الشرف . ثم أنك كما يبدو لى وقعت فيما
 سموه الحب وما كنت تود أن تبنى عليه بيتاً . فتش عن نفسك

الثاني في غير دائرتي يا سيدى . ودع النصف الذى أمامك تدور به الدنيا حتى يلتقى بنصف آخر .

وسكت . فساد بينهما سكون خلقتة الدهشة لأنه رد ما كان يتوقعه ولكنه أقبل عليها يقول :

— لست أستطيع أن أزيد على ما قلت يا ليلي ، وهو شيء طبيعي كان الرد عليه غير طبيعي . لماذا لا تسعديني ؟ ألأنك فقيرة ؟ ما كان الغنى مصدر سعادة ولا اسعاد ، ولا كان الفقر مصدر شقاء ولا اشقاء . انما هو اختلاف واتلاف بين نفسين فتشقيان أو تسعدان . فادخلى الى نفسك يا ليلي واسألها تعودى بجواب عن حال بيت يضم شخصينا .

— هبنى وحدى فى الحياة ، وأننى لا أعرف أقربائى ، وأن أمى قد ماتت ، أستطيع أن تقبلنى زوجة ؟

ونظرت اليه لتسمع كلمة الفصل ، فسعته يقول :

— بغير شك . أنا لا يعنينى الا التى ستكون فى بيتى ، ولكن أمات أمك يا ليلي أم أنت تقرضين الفرض ؟
— كلا انها ميتة .

— ألا تذكرين أنك قلت : انها تعيش فى القاهرة ؟

— يعز على الفتاة دائما أن تعلن أنها تعيش وحدها . لابد لنا من أناس يحوطنونا . والقليل منا من يحطن أنفسهم بأنفسهم .
— ألا ترانى محقة فيما ادعيت ؟

— بلى . وأنت من اللأئى يحطن أنفسهم بأنفسهم .

— ان الحوادث بيننا جرت سريعا .

— أترأك اعتبرتنى خطيباً ؟

— سيدى لا تتعجل . لا بد للأمر من أسبوع حتى أقنع نفسى
بأننى أهل لأن أحمل هذا الشرف ، وحتى تعاود نفسك فربما
كنت تحت تأثير غير عادى . ولكن حدثنى : أليس من الضرورى
أن تستشير أبويك فى أمرك هذا ؟
— ذلك شأنى فلا تشركينى فيه .

وتحولاً للمسير والليل ساج ، وسبارا على سيف البحر
متجاورين يخفق قلباهما بالحب ويحجز بينهما تأخير « كلمة »
لأنها لما توافق . ولم يطل بهما المسير حتى تواقفا للوداع تحت
نور مصباح انعكس شعاعه على وجه ليلى ، فقرأ فيه صاحبها
معانى ظنهما سكينه واستقراراً ، ولكنها كانت شروداً وحيرة
ودهولاً موهمها عليه الليل . وبقيت الكلمة معلقة فى فم الزمن ،
خيأتري ماذا تكون ؟

أكتب على خطاب تكتبه والليل ساكن ... تكتبه الى رجل
واحد هنا عليها والناس جميعا بها برمون . ذلك هو السيد
الأمين ، عله يرى في أمرها رأيا :

« سيدى وأبى ، ومن اذا دعوته لحادثة أجاب .

« لم أستطع أن أعيش بعيدا عن الحياة يا أبى ولو أننى غير
راغبة فيها . ومن الغريب أن نمتتها ونسعى الى القوت من أجل
أن نعيش ... مفروضة علينا على أى وجه ، واذا تخلص منها
شقى سخر منه الأشقياء أول الناس !

« لقد جذبنى تيارها دون أن أحس فألفيت نفسى فى الغمار وأنا
أظن أننى بمعزل . ووجدتنى وجها لوجه أمام طبيب شاب معى فى
المستشفى ، لم أسمح له بأن يقول : انه يحبنى . ولكننى لم
أستطع أن أمنعه من أن يقول : انه يريد أن يتزوجنى . وقد وقع

يبنى وبينه شيء من الألفة لا من الحب ؛ لأننى ثمره حب أخاف عواقبه .

« غير أنى فى حيرة من أمرى فهو لا يعرف سرى . فهل ترى . من الضرورى أن أكون صادقة ؛ لأنه من المحال أن تبنى على الأكاذيب حياة طويلة . ذلك ما توجيه الى نفسى وان كنت لأجد منها الشجاعة على أن أبوح به .

« أبى : لقد كنت مرشدى ومعينى فلا تبخل على بفضلك ؛ خائنى لا أجد فى الدنيا من آوى اليه . ولك منى محبة ودعاء » .

ولم تلبث أن حمل إليها البريد بعد أيام الخطاب التالى :

« بنيتى العزيزة :

« لا تظنى يا بنيتى أن الفضيلة رسم على الأرض ولا وجود لها فى قلوب الناس . واعلمى أنه لا بد للوجود من قوى متعارضة يناهض بعضها بعضا ، فلو خلق الخير وحده ما استقامت أمور ، ولو خلق الشر وحده ما استقامت أمور ، وانما استقامة الأمر فى أن يتعاوره الخير والشر . فتقى بوجود الفضيلة ما دمت واثقة بوجود الرذيلة .

« وليس لك بعد ذلك أن تنفى الفضل عن ذلك الطيب فرما كان من أهل الفضل ، صارجه بأمرك ما دمت واثقة من أنه حريص على أن تكونى زوجة له ، واحملى نفسك لحظة من الزمن على أن تنكشف لبعض الناس فما أنت مذنبه وانما هم المذنبون . فإن قبلك زوجة بعد ذلك فما غششته ، وان كانت الأخرى قبلك الله . هذا هو السنن الذى يحتم علينا الخلق أن نسير فيه ... لا

خداع ولا مواربة وقضاء الله لا بد واقع ، وأتمنى لك التوفيق «
شد ما آلمها أن تكون شاهدة بنفسها على خستها بمحضر من
ترجو أن يكون قرينها مدى الحياة !

والسيد الأمين ، رجل فاضل فظن أن الناس جميعهم فضلاء ..
ولكن أليس من الجائز أن يكون هذا الطيب فاضلا أيضا ؟ قد
يكون ذلك وقد لا يكون !

وعلى أى حال فلن تستطيع الفرار منه الا بعد ايجاب أو
رفض ، ولا بد للايجاب من صراحة وللرفض من تعليل .
وقرت على أن تذوق المرة أخرى ، ولن يؤذيها ذلك كثيرا
فهو شيء قد تعودده اللسان . ومر الأسجوع سريعا والطيب
يرقبها ، حتى كان اليوم الأخير فيه وقبلها في الصباح فابتسم
وسلم ثم قال :

— لم أتحول عن شيء .

— لا . لا بد من نزهة .

— أرجو أن يكون الجو ملائما .

— علم ذلك عند الله !

وقلبت كفيها ثم سار كل الى شأنه .

وشهد البحر فى أصيل ثالث حوار ليلي وجمال ، وذهبت
ليلى لتسمع الحكم فى قضية العمر بعد أن تبسط لذلك الغرب.
سرهما الغريب . ولما التقيا كانت أكثر ابتساما وأدنى الى التفاؤل
على أن الهدوء والشجاعة لم يبيننا عليها الا فى ذلك اليوم ، لأنها
بقيت أسبوعا كاملا تجمع ما بين أطرافهما .

وأراد جمال أن يفتح الحديث فقال في رقة :
 - ليلي... أنا أريد اليوم أن أكون شاعرا (فقالت في نفسها :
 ليتنى أحظى منك بقلب الشعراء) ، كما كنت في ماضى الأيام
 فيلسوفة ، فاستمعى الى واحكمى على ... ترى هل سألح ؟
 وقلب فى الكون ناظره ثم بدأ يقول :
 مالى أرى على الكون فى هذا اليوم دلائل من رضا وهدوء ،
 حتى كأن كل ظاهرة من ظواهره قد انسجمت مع أختها ففاض
 من انسجامهما جمال ؟ النسيم قد هادن البحر فهو هادىء والبحر
 هادىء ، والطير فى السماء متسللة فطار العقاب بجانب العصفور ،
 وأغصان الشجر متناوحة فى غير جلبة ولا ضوضاء ، والشبس
 ترسل أشعتها على الناس ما فيها وهج ولا حرارة . وزرقة الأفق
 هناك منسجمة مع زرقة الماء حتى كأنهما من أديم واحد ،
 وخطاطيف البحر تحلق وما تهوى على السمك كأن بينها مهادنة
 وسلاما . وكل شيء فى الكون وادع ساكن فى رضا وجمال ، كأن
 الدنيا تهيأت لعيد ... فلعله عيدنا يا ليلي ... ولعللى أجسدت
 محاكاة الشعراء !

- كان يجب أن تكون شاعرا يا دكتور لأن قلبك من قلوب
 الشعراء ، ولا بد أنه واسع كريم . غير أن القلوب الواسعة
 الكريمة قد تضيق بشيء ولا تسعه ، وليس عليها من حرج فيما
 تفعل ؛ لأن القلب لا يعرف دستورا ولا قانونا ، فدستوره منه
 وقانونه فيه .

- وماذا عسى أن يكون ذلك الذى يضيق عنه قلبى ؟

— هو ليلى .

— ماذا تقولين ؟ لا بد أن يكون أحدها مجنوننا . انما جئنا الى هنا لكى تجمع بيننا كلمة ، وقد قلت لك : انتى لم أتحول فكيف يضيق قلبى عنك يا ليلى ؟

— لقد خلت أننى أصلح ولكن الخيال زایلنى ، خير لنا أن نفرق وأرجو ألا تترأى الا فى المستشفى ... لا تحملنى على أن أصغر فى ناظريك ، وحسبى أن قلبك قد حلق حولى فى يوم من الأيام .

— ليلى ... أهنالك ماض تخافين منه ؟ كونى صريحة معى وبقى بى . فنظرت اليه وقد سبحت-عيناها فى الدمع ، ثم استرجعت بصرها وحولت وجهها عنه حتى هدا ما بها قليلا فأخذت تقول :

— الخير لى أن أعيش بعيدا عن الناس فليست من الناس وليس الناس منى . ولكنك تأبى الا أن تلج على هذه الوحدة المنيعه ، ولست أدرى ما هذا السلطان الذى فرضته نفسك على نفسى حتى أحس بأننى أريد أن أقول لك كل شئ ، ، فان غفرت فأنا لك ، وان آخذت فلن ترانى فى المستشفى بعد اليوم فسأتحول الى مكان آخر !

— كأنه سر خطير ... أنت تحملين أكثر مما تطيقين ، فتخفى من حملك وكونى واثقه بأن للعفو مواضع كثيرة .
— جمال ... أنا كاذبة ... فهل تغفر لى ، انتى كاذبة ؟
— أهذه غاية أم بداية ؟

— انها بداية وسأبنى عليها ، وقد كذبت على جميع الناس لأن وجودي كان أثرا لكذبة !

— ليس الكلام واضحا تماما ... وقد أفهم منه شيئا عظيما .

— انه شيء عظيم ... لقد أحببت أمي ... وفر أبي ... هذه

هي ليلى !

— أتريد أن أقول : انك

— انتى لقطة ... انتى لقطة !

وأجهشت بالبكاء وهو ذاهل من أثر المفاجأة ، جامد كأنه تمثال .

وعاد اليها تماسكها قليلا ، وثاب اليه عقله قليلا .

فقال كمن يتكلم وهو نائم :

— أنت لقطة ... لقد ظلمك الناس !

— ولكننى أستغفرهم وهم الظالمون !

ثم اتجهت الى السماء كأنها تقتش عن كوكب ، واتجه هو الى

البحر كأنه يطلب في صفحته الواسعة حلا لمشكلة ضاق بها أكثر

ساكنى الأرض وكانت الأمواج ترتقى على الشاطئ في تكسر

مستابع ، وخيل الى ليلى أنها تهمس في أذنيها : « ألم أقل لك يوم

اللقاء الأول احذرى أن تصدقى فان الطبيعة أصرت على ألا

تهبك أخا ؟ ستمشين وحدك وستموتين وحدك يا ليلى وما لك

على الأرض من قريب ولا حبيب . »

فطلق قنفا دون أن تحس :

— نعم هو كذلك .

فاتجه اليها الطبيب وقال :

— نعم هو كذلك يا ليلى تستغفريهم وهم الظالمون ... لشدة ما عكست الأوضاع في هذه الدنيا وحمل الأوزار غير فاعليها ! لا تراعى من شيء فأنت لى ، وسأحملك على كنفى لأمر بك من عقبات المجتمع . أنت خطيبتى وسأعلن ذلك . وقبلها قبلة الأزواج .

قالت :

— كأنتى لم أصغر فى ناظريك !
— بل لقد صغر فى ناظرى الناس .
— أما أنا فقد عفوت عنهم ، لأننى وجدت فيهم رجلين كريمين .
زوجى والسيد الأمين !
— أتعرفين السيد الأمين ؟ ان اسمه ذو شهرة .
— هو الذى رعى ضعفى وربى خلقى ووجه حياتى ، وهو الذى حمانى من الناس .
— اذا لقد ظفرت بكرة ... ليلى : لنس مافات فلا تتكلمى فى الماضى ... هيينا خرجنا من البحر معا لنعيش على هذه الأرض فى حياة جديدة سعيدة .
وغطى الاسكندرية مساء جميل كان غلسه فى عيني ليلى ضياء . وتحول الخطيبان ليسيرا فقالت ليلى :
— لست أنسى هذا المكان ! سأحجه دائما لأنه مبارك !

(لقيطة)

فقال جمال :

— الكون كله مبارك ، ألم أقل ان الطبيعة تهيأت لعيد !
ثم تواقفا للوداع فاختلفت التحية عن كل ليلة : لقد قال كل
منهما لصاحبه :
« وداعا والى اللقاء » .

٤

طرق الأسماع مع الصباح في المستشفى بعد يوم أو يومين
خبر خطبة ليلى الى جمال ، فكان خبرا غريبا لأن الجميع
اعتبروها محظوظة .

غير أن الخطيبين كانا في شغل بنفسيهما عن جميع الناس ...
كانا في حمى من السعادة لا يشعرا في فيه بأحد كأن الدنيا في نظر
كل منهما تجمعت في شخص صاحبه . وكان شغل الطبيب
الشاغل أن يستكمل على عجل كل المراسيم حتى يزف الى
عروسه . أما ليلى فانك ان دخلت الى نفسها وجدت سعيده غير
موقنة بالسعادة ، كمن استيقظ من نومه فوجد نفسه منصبا
على عرش ، من أجل ذلك تركت نفسها تنعم بالخاضر الجميل ،
وغد غيوب وأسرار وأقدار .

واتفقا على أن يسافرا معا الى بلده ليقدمها الى أبويه . وكانت
ليلى خائفة من هذا السفر فقالت في جزع :

— ترى. أمن الضروري أن تقول لهم كل شيء؟ ان الطبقتين مختلفتان يا دكتور، وهذا ما يحول كثيرا بين الأحباب .
فقال :

— تذكرى كلامى فى الماضى يا لىلى ... هذا شأنى وحدى وأنا على بينة من أمرى ولست غافلا عن شيء . وأنت ستزلى عندنا ضيفة ، ولن يلح عليك أحد فى السؤال، وستكونين من غير شك موضع اعجاب . وعلى كل فلن يحول بينى وبينك أحد . غير أنك من الآن من أهل الاسكندرية وابنة أحد التجار .
قالت فى ألم واستحياء :

— آه ... لقد حملتك على أن تكذب وما أغنى نفسك الكبيرة عن كل هذا ! انى بدأت أشعر بفداحة حملى عليك . جمال : من المستطاع أن تتخفف منى فلست مرتبطا بشيء ، وان كنت مرتبطا فأنا لا أطلبك ... أنا خائفة ... أنا خائفة !

— ألم أقل لك : انه من الضروري أن نسى الماضى فلا تتكلم فيه ؟ وأنا لا أكذب وانما أريد أن أحاور المجتمع وأفرض له الفروض حتى يقتنع ، فهو ينفر من غير المألوف دون أن يفكر فيه .
ليت شعرى أى حدث سيسيطر من هذا الاقتباس ان لم ييسطه منك جمال !

فابتسمت لىلى وجرى الرضا فى وجهها مع ماء الشباب .
وامتد بالقطار المسير وهما فى نشوة من سعادة تشرحها العيان للعينين أو يخاطب بها اللسان اللسان، حتى اذا وصلا الى القاهرة

نقلا الى قطار الصعيد . وحل المساء ونزلا في محطة جنوب الحيزة ،
وتهياً بيت في قرية نحو الشرق لاستقبال قادم عزيز .

كان القمر يرسل أشعة فضية على المزارع الخضراء ، وينعش
بنوره السارين والسمار حين استقل جمال ولىلى عربة أبيه التى
كانت بانتظاره والتى يجرها جواد من خيار الجياد . وألقى ليل
الريف الهادئ في قلب الحبسين روعة غير محدودة ، وتراقصت
أضواء القمر على وجهيهما وغمرهما السكون الذى لا يسمع فيه
الا وقع سنابك الجواد على الثرى الندى مجاوبة لأصوات الضفادع
والجنادب ، فكان لهما من ذلك موقف ما وقفاه أبدا من قبل ،
وخيل اليهما أن العربة انما تسرى بهما الى طريق الخلود . وقال
كل منهما لصاحبه دون كلام . « اتنا سعيان ! » .

ومرت ساعة من الزمن على غير رضا منهما بمرورها ، وبدا
للعين في أحضان الليل قرية جاثمة بين المزارع فقال جمال :

— هذه قريتنا ...

فقال في خفوت واستحياء :

— جمال ... أسمع شيئا ؟

— ماذا أسمع ؟

— خلتك سمعت هذا الصوت من قبل واتبعت له ... ان

قلبي يدق دقات غير عادية خيل الى أنها تغلب على وقع سنابك

الجواد ... اننى خائفة !

— سنرجع في هذه العربة ونحن أشد ما نكون تدانيا ياليلى .

لا تخافى من شيء فنحن نكرم الأضياف .

— مرحبا بك يا بنى .
 هذا ما قالت أم جمال لجمال ، ثم طبعت على جبينه قبلة الأمومة
 — ان فى الحجره الخارجيه ضيفه عزيزة ... أين أبى واخوتى ؟
 — كلنا قادمون .

واجتمعوا جميعا فى الحجره ، وقدمها جمال الى أهله باسم
 بنت أحد التجار الاسكندريين . ورحب بها البيت فزال ما بها من
 وحشة ، وجلست بجوارها أم جمال وهى امرأة محنكة حذرة
 تحلت قليلا من جمود الريف ، وحدثتها فراستها أنها لابد خطيبة
 ابنها حينما طالعت ما بهرها من جمال ، والمرأة دائما « مجهر » المرأة
 يتجلى تحت قفصه كل ما دق من محاسن وعيوب .
 قالت أم جمال :

— ألم ترى الريف قبل ذلك يا ليلى .
 — كلا بالطبع لأننى نشأت فى المدينة ، ولكننى أعرف عنه
 الكثير لكثرة ما خالطنا من الريفين ، فنقلوا إلينا جمال طبيعته
 فى جمال طبعهم . وكلهم فضلاء .
 قالتها ، ولو أن لبعض الريف فى ذهنها ذكريات سيئة .
 فضحكت السيدة ضحكة استحسان وقالت :
 — انك يا بنيتى جة الأدب ، فمديح السكن من مديح الساكن.
 أرها غداً يا جمال معالم الريف لتتوفر لها نزهة حسنة ... طف
 بها فى المزارع والحدائق ، ومر بها على منابت الذهب ليزيد حبها
 للريف .

ثم قاموا للعشاء ، وأوت ليلى بعد ذلك الى مخدع منفرد .

واجتمعت الأسرة في حجرة ليتكلموا في الطارئ الجديد ،
وكان المتحدثون هم جمال وأمه وأبوه وأخوه الذي يصغره .
وأخذ جمال يعرض القضية عرض المحامي الحذر الحريص فقال :
لقد تركتم لي مطلق الحرية في أن أختار شريكتي في حياتي بعد
أن وثقتهم من اتزاني وعقلي . وقد عرفت هذه الفتاة في ظروف
هادئة لأن أباهما من أصدقائي ، ونحن أغنياء بما لنا ويكفيني أنها
مهذبة مثقفة . .

قالت الأم :

— أنت تحبها يا جمال . أليس كذلك ؟
— بلى يا أمي . ولكن ليس من الحب الذي يعنى عن العيوب ..
لقد عرفتها ثم أحببتها . وأنت تستطيعين أن تحكمي عليها .
— بالفراصة والتخمين ، وبهما أحكم أنها مهذبة طيبة . أما
جمالها فمما لا يختلف فيه اثنان .

وقال الوالد :

— أنا لا أعارض في شيء ما دامت طبقتها غير نازلة ، فإن
اختلاف طبقة الزوجين يوسع الهوة بينهما . ولا بد لي أن أرى
بيتها بادئ ذي بدء .

فقال جمال في لهفة :

— لكنك توافقني على أن شخصها صالح قبل أن تتحدث عن
الأشياء الأخرى .

ونظر الأب الى زوجه فرأى في عينيها نظرة توسل بالآ يخالف
شعور ابنه فيما يريد ، وأن يحظى منه بموافقة مبدئية .

فقال الرجل من فوره :

— لا شك انها صالحة .

فأمسك جمال بزمام الأمر ، ثم هجعت الأسرة حتى الصباح .
واستيقظت ليلى على شقشقة العصافير المزدحمة على أغصان
الكافور بالقرب من نافذة حجرتها ، ففتحت النافذة وألقت على
الجمال الباسم نظرة مستفهمة ، وافتر ثغرها عن ابتسامة وهي
تهز رأسها وتقول في نفسها : ترى ماذا يكون هذا الصباح
الجميل ؟ أبشير هو أم نذير ؟ فلا بد أنني كنت سمر البارحة .
وقرت بابها يد خفيفة ، ثم سمعت جمالا يقول بصوت واضح
مستعذب :

— ليلى ... ألم تنهضى بعد !

وأدركت الرضا في نبراته ، فسرى عنها قليلا وأجابته وهي
تفتح الباب :

— لقد سبقت الشمس .

— حسن فالقوم هنا ينهضون مبكرين .

— لأن الكون في الريف لا يطول سباته ... هو مبكر في
اليقظة والنام .

كان وجهه فرحا نضرا وان كان قريب العهد بالنوم ، وكل
جاذبة من جوارحه تؤدي عملها بخفة : فوميض عينيه زائد
وحركات يده عند الكلام سريعة ، وقسمات وجهه بليغة التعبير ؛
لأنه كان في نشاط عصبى خلقت السعادة . وجلس على كرسي في
حجرتها وقال مبتسما :

— لقد نسيت يا لىلى أن أقول لك : صباح سعيد .
 — لأنه صباح سعيد .
 — بغير شك . فقد غنمنا فى الموقعة الأولى .
 — أرجو ألا تكون الحرب سجالا ، وأن نسجل النصر الأخير !
 — دعى التشاؤم ، فالشؤم كله فيه . ان الكون يحتفل بنا فى
 الريف ، كما احتفل بنا فى الاسكندرية ... أنت لى ما فى ذلك
 شك ولا عسرة .
 ثم غادرت المخدع لتبترد ، وتلقت من أفراد البيت تحيات
 طيبات ، وزادت الحفاوة بها عن قبل لما عرف موضعها من جمال ،
 وهو البكر العزيز للأبوين ، والأخ الأكبر للبنتين . وأيقنت لىلى
 أن الدهر نام عنها نومة أبدية ، وأن ما بينها وبين الزمان طاح مع
 الرياح ، فقد أمسكت بيدها مفتاح الفردوس لتتعم فيه بالنعيم
 المقيم .

كانت نزهة خلوية فى الحقول الضاحية تحت شمس الخريف
السقيمة . خرج فيها ابن سيد القرية مع خطيبته العزيزة ليستبها
سعادة هبطت عليهما من السماء .

وخاضت ليلى شعاع الضحى وخضرة المزارع فى ثوب أزرق .
وحذاء خفيف ، وعفر تراب الريف قدميها الجميلتين لأول مرة .
ثم استوى بهما المسير على طريق سوى يسايره نهر صغير
وتقوم على جانبيه أشجار عالية اتخذت فيها الطير أوكارا ، ليكون
لها من علوها وعزلتها مأمن من عادية الانسان .

وسارا واليدان متماسكتان . والسكون منصت الى ما يقول
العاشقان .

قالت ليلى كأنها تحدث نفسها :

— حسبى هذا ... ما على ما نلت من مزيد . ليت قصتى معك
تنتهى الى هذا الحد ، فأستحيل الى قطرة من قطرات هذا

الندى اللامع تمتصني الشمس بعد لحظة ، فاتطير وأفنى في
عرض الأثير !

فالتفت إليها وقد فتح فيها عينيه وهما متابعان المسير . ولكنها
لهم تتوقف عن الكلام :

— ان سعادة بنى الانسان دائماً مشوهة ، لأنها فتحة من الخلود
وليست به ، وصورة من نعيم الأزل وليست حقيقة ، ولو كنا لا
نذكر حين نسعد أن لسعادتنا نهاية ما شقينا ، ولكننا كهذه
الطير التي تتصايح فوق رؤوسنا ما تأبه بصباح ولا مساء ،
لكننا نشرب الكأس وأعيننا الي قاعها لترفعها من أفواهنا متى
نقد الشراب .

لست أريد أن أعكر عليك صفوك ، ولكني أتمنى ألا توقظني
من الأحلام طرقة ، وأن أستل من سعادتني بسهولة ولين .

أنظر الى هذا الطريق الجميل ، وانظر كيف يلذ لنا أن نسير
فيه ! انه لا بد أن ينتهي ! وقد يعن لنا أن نعود أدراجنا لنستعيد
اللذة التي فقدناها بانهاؤه ، ولكن طريق السعادة وطريق العمر
انما يقطعان مرة واحدة .

قال وقد علت وجهه دلائل الجذ والاهتمام :

— لا أظن يا ليلي أننا سنفرغ من ذكر السعادة والشقاء ، ولا
يبعد أن تذكرها وأنت في جلوة العروس !

نحن شيء من الكون فلنكن كأي شيء فيه : أمنع منجل
الحصاد هذه المزارع من أن تخضر ؟ أو أمنع شعاع الشمس

قطرات الندى من أن تتلألأ؟ أو منعت شباك الصياد هذه الطيور
من أن تغرد ، وذلك السمك من أن يرح !
لا بد أن نرقص مع الراقصين وأن نبكى مع الباكين ، فلنرسل
الضحكات في باحة الرقص ، ولنندخر الدموع ليوم الدموع ...
دعينا نتحدث عن عش زواجنا .

وابتسم . وابتسمت :

— حتى نساfer الاسكندرية .

— الجو هنا أهدأ .

— كل جو أنت فيه هدوء ... والام تؤدي هذه القنطرة ؟

— لقد انتهى بنا المسير . سنعبرها الى العزة .

وتحولنا عن الطريق الظليل الى الشرق ليعبرا القنطرة ،
فنظرت اليه مبتسمة وقالت :

— ولكننا سنعود لنقطعه من جديد .

وخف فلاح ليستقبل السيد ، وأعقبه ثان وثالث ، وصعد
الخطيان الى بناء العزة ليستريحا قليلا ، ثم نزلا وأوغلا في
المزارع حتى وصلا الى الحديقة فاقترضا عشبها وطعما من
ثمارها ، والجنينى قابع بالقرب منهما ، حتى أمره جمال أن ينصرف
قفعل . فقال مداعبا :

— ليلى ... ترى أمثل هذا الرجل شقى أم سعيد ؟

— لقد عدت لذكر السعادة والشقاء . ولا يبعد أن تذكرهما

وأنت في ليلة الزفاف (وضحكت) ولكننى أستطيع أن أحكم

بأنه سعيد .

— كيف يسعد وهو في مثل هذا الشقاء ؟
 — أين هو الشقاء ؟ انك تراه وهو لا يراه ، لأن أمثال هؤلاء
 المساكين يعتقدون أنهم خلقوا لمهامهم هذه لا لأعظم منها ، فان
 أدوها وشبعوا سعدوا ... كسرة من الخبز ، وجرعة من الماء ،
 وخرقة تستر البدن ، وقوة للمزاولة المهنة . هذه هي السواري
 الأربع التي تقوم عليها سعادة الفلاحين ، والا ما تردد في الحقل
 غناء ، ولا شهدهم فيها صباح ولا مساء !
 فأغرب جمال في الضحك ثم قال :
 — ألم أقل لك . اننى ظفرت بدرة ؟ أنت لى ما فى ذلك شك
 ولا عسرة .

وأخذ كفيها بين كفيه .
 فأرسلت اليه من عينيها الخضراوين بنظرة تفيض بالرضا
 والأمل كأنها تقول : أرجو أن يكون ذلك ، وأن تكون حياتنا
 كجو هذه الحديقة : نفح أزهار وتغريد أطيّار .

أطفئت كل الأنوار في المنزل الا في حجرة واحدة ، كان فيها
 جمال وأمه يعيدان الحديث في شأن لىلى . والآمات دائما مفزع
 الأبناء ، يفضى اليهن بكل عظيم وينفض اليهن كل دفين .
 قال جمال :

— أنا أريد أن أراجع قليلا فيما قلت يا أماه ، أريد أن أعدل
 ما قلت لك عن لىلى .

- خيرا يا بنى ، أبدا لك من أمرها شيء ؟
- أأعجبك أخلاقها يا أماه ، وأعجبك جمالها ؟
- لقد أبديت لك رأيى من قبل ولا أزال عنده .
- أأنت على يقين من أنك لا تتحولين ان ظهر هناك عامل خارج عن شخص لىلى ؟
- لست أفهم ماذا تعنى . لقد قلت لى : انك تحبها وكفى .
- ولكن كاشفنى بحقيقة الأمر ، ولن أرمى بفلذة كبدى فى موقد النار ... سأحقق لك السعادة يا جمال بكل ما أطيع .
- أمى ... انها فقيرة !
- ربما كانت من أسرة أناخ عليها الزمن . وقد قلت أن أباه من التجار .
- وهذا ما أريد أن أراجع عنه أيضا ، فانها يتيمة ! .
- فقيرة ! ويتيمة ! اذا فكيف كانت تعيش ؟
- من فضلة مال خلفها أب مسرف ، ومع أم كانت من المسرفات . صدقنى يا أماه أنه لولا ما فرط من أبويها لعزت لىلى على أن ينالها مثلى . انى أريد أن أسجل فضلا وأن أغتنم فضلا ، فكونى ساعدى عند أبى ، ولا تدعينى أخالف مارسمت فى حياتى من طاعة دائمة ، فأنا أطمع فى دعواتكم على أبواب هذه الحياة .
- وبلغ به التأثير منتهاه فاغرورقت عيناه بالدموع . فرفعت الأم وجهها الى السماء فى تبتل وخشوع ، وهممت بدعاء قصير .
- وفى اليوم التالى قالت لابنها :

— لقد وافق أبوك بعد لأنى يا جمال ، لأنه لم يعجبه أن تكون زوجك من دون طبقتك . وفد علمناك يا بنى لتعظم في عينيك المثل ، ولكن الحب صرعى فهوينا جميعا من ورائك . وافق أبوك على الخطبة ، ورغب فى أن تترى حتى يتبين أمر نفسه ، فان الناس سيقولون : « ترى من الذى صاهره الدكتور جمال ؟ » أما قلوب الآباء فتقول : « ليصاهر جمال من يشاء خير من أن تفقد جمالا » . ونستطيع أن نقول أيضا : « انا أغنياء بحسنا ومالنا عن أن نتخذ من الأصهار وصلة نطاول بها الناس ، وتفاخر بها المفاهرين » وهذا ما كتب لك فى الأزل فعلى بركة الله . غير أنه يجب أن تبسط من اقباضك حتى لاتعكر على الفتاة المقام . فهذا ليس من الكرم فى شىء .

فاستخفه الطرب حتى كأنه حوى الدنيا كلها بين يديه . فنزل سلم البيت ثم صعد ، ثم نزل ثم صعد ، ثم دخل حجرة نومه وأغلقها عليه ، ووقف أمام المرأة يرجل شعره وألقى نفسه يغنى . لقد انبعثت أنشودة السعادة من بين شفثيه دون أن يحس ، لأن طائفة كبيرة من المجتمع وافقت على زواجه ، وهذه الطائفة هى أبواه . ولأنه بر بوعد لهيبته حين قال لها : « سأحملك على كنفى لأمر بك من عقبات المجتمع » . ودخل عليها فى حجرتها وشد على يدها :

— ليلى ... لقد كسبنا الموقعة الأخيرة !

ففغرت فاما واتسعت عيناها كأنها لا تصدق :

— أقلت لهم كل شىء ؟

— قلت لهم كل شيء وما بقى هناك سر .

فقالت بصوت هامس مخنوق :

— الا سرا واحدا يا جمال !

— ليس له وجود يا ليلي ، لقد عفى عليه الزمن فامحت آثاره
ودرست معالنه . وقد خرجنا من البحر من جيل لنعيش معا في
حياة جديدة سعيدة .

— أخشى أن يكون قد ادخرها لآخر لحظة ، وأن يكون
متناعسا وهو يقظان !

— لا . لا أظن ذلك ... نحن اليوم أسعد الناس !

واتقيا على أن يكون الرحيل غدا ، فخرجا الى المعاهد التي
لبسا فيها سعادة منغصة ؛ ليعرضا فيها ما لبسا من سعادة
جديدة أكيدة . وسارا على طريقهما المعهود ساعة من زمن .
كانا يقفان تجاه كل شجرة ويحييان فيها كل عش ،
ويفحصان ثرى الطريق كأنهما يفتشان عن مفقود ! وغمرتهما
في هذه المرة موجة من الأبدية ، فأحسا كأن كل ما حولهما
لا ينتهى : فالطريق ممدود بشجرة الى غير غاية ، والنهر
يجرى بجواره الى غير نهاية ، وهما كأنهما ملكان في صورة
انسان يستطيعان أن يسيرا على أى شاءوا : على التراب ،
أو على الماء ، أو على الهواء ... عطلت في نظرهما قوانين المادة
لأنهما تحت سيطرة الروح !

وجنحت الشمس الى المغيب فتحولا ليعودا ، واضطرم
قرصها الأحمر على خط الأفق وتريشت قليلا قبل أن تغيب ،

واتجه نظر الحبيين الى الكوكب العظيم ، ووقف جمال وقال
كمن ألهم شيئا .

— ليلى ... يجب أن نقف قليلا لنودع أسعد شمس أشرقت
علينا في الوجود .. واذكرى اليوم واذكرى البقعة .

— انه يوم الخميس بجانب أضخم شجرة على يمين الطريق .
ووفقا متجاورين هناك وقد غمرهما الجلال ، وشخصت
عيونهما نحو الغرب ، كأنهما في صلاة الى غير قبلة .

لم يكن يعلم الا الله من الذى سيقف في هذه البقعة بعد أيام
لاتعد طويلة ؟ أهو وحده ؟ أم هي وحدها ؟ أم هما معا سيقفان ؟
وروحا من أسراب الطير ، وخفت خطاهما قليلا ، وغطت
وجهيهما ظلال الليل فعادتهما موجة الأبدية ، وخفت الحديث
بينهما حتى كأنهما يخافان أن يزعجا نفسيهما . وقال جمال :
— أتذكرين !

— الماضى أم الحاضر ؟ ان ذهنى في نشاط يذكرنى كل شيء
كأننى أقرأ في كتاب !

— أتذكرين المرة الأولى يوم كنت تفكرين في البحر !

— لقد أخرجتنى من الماء .

— من أجل ذلك كنت درة ... ها نحن أولاء قد قربنا ...

وداعا أيها المساء ، سنشهد مثلك ونحن عروسان .

— نعم وداعا ؟

وأوى الخطيان الى الفراش مبكرين ، لأنهما بائسان على

سفر .

وفي الضحى شد الجواد الى العربية ، ووقفت بالباب حتى
يودع المسافرين . ونعمت ليلي بمشهد لم تنعم بمثله من قبل ،
رأت فيه حنوا مشتركا بخلت به عليها الطبيعة ثمانية عشر عاما ،
واستمتعت بقبلة من أم خطيبتها وطبعت على يد والده قبلة ،
فخالته أنها خارجة من مهد الطفولة وأنها تودع أهلها ، فلم
تملك دموعها وهي في طريقها الى الخروج . ورأتها السيدة وهي
تبكي فربتها قائلة :

— أنت يا بنيتي رقيقة الحس ... لسرعان ما تعلق بنا !
لا تجزعي من شيء فسراك قريبا .

ورأى جمال بكاءها فضحك ، لكنه كان معجبا بها في قرارة
نفسه .

ووضعت حقيبة كبيرة أمام السائق ، وصعد جمال وصعدت
ليلى ، وابتعد الواقفون قليلا لما تهيأت العربية للمسير ، وأوماؤا

بأيديهم للسلام . وسمع صوت نسوى من وراء الباب يهتف :
« مع السلامة » ثم شد عنان الفرس وتحرك للمسير ،
وتفرق المودعون ، واختلفت بهم الطرقات .

ونظر جمال الى ليلى وهو يقول :

— لقد مرت الأيام بسرعة حتى كأننا لم نهم ساعة !

وسمع صوت ينادى من وراء قبل أن تسمع العربية :

— سيدى الدكتور ... سيدى الدكتور ...

فوقف السائق ونظر جمال خلفه ، ثم عاد فقال لليلى :

— لقد نسيت حقيقتى الصغيرة .

كانت تجد السير بها فتاة ريفية جميلة مكتملة الشباب ،
دخلت البيت بعد أن تحركت العربية فألفت سيدتها تطلب من
يوصل الحقيية ، فأخذتها لتوصلها وتودع . ولما أدركته كانت
الى الناحية التى بها ليلى . ووقع نظرها عليها ويدها مبسوطة
وهى تقول : « مع السلامة » .

ولم تكن رأتها من قبل . وفجأة صعد الدم الى وجه
كلتا الفتاتين وبدا فى عينيها العجب ، ودلت قسماتهما على
أنهما متعارفتان : ومرت لحظة وهما ذاهلتان والطبيب ينظر ،
ثم تكلمت كوكب وقالت :

— ألسنت ليلى ؟ كيف أنت يا سيدتى ؟

فردت عليها بإعلاء ، وجدت العربية فى المسير .

لقد كانت كوكب السهم الأخير الذى احتفظ به الدهر

ليسده الى قلب الحبيين ، ومن أجل هذا نسيت الحقيقة ،
وضلت عن مكانها الأبصار .
قال جمال :

— كيف تعرفينها يا ليلي ؟ انها زوجة أحد الزراع في العزبة .
— كانت بائعة لبن أيام كنت في مستشفى الدكتور ك ...
فزفر زفرة طويلة وأخذه من الارتباك ما لم يأخذه من قبل :
— خير لنا أن نواصل السير ... انها بلهاء ... هي طبعاً
لا تعرف أكثر من ذلك !

فمسحت ليلي العرق الذي نضح به وجهها ولو أنها باردة
الأطراف ، وأجابته وهي مطرقة :
— طبعاً هي لا تعرف .. جمال أرجوك أن تمسك حتى نركب
القطار ... ألم أقل لك ؟

ورفعت منديلها لمسح العرق لكنها مسحت دمعا وعرقا .
وسخرت منهما العصافير بالشقشقة والأغصان بالتراقص ،
وهو يقلب الطرف في المزارع من حوله وهي ناظرة تحت قدميها
ووقع سنابك الحصان في آذانها كأنه دف حزين .
ونزلا في المحط وقفلت العربة ؛ لأن جمالا لم يشأ أن يمكث
السائق حتى يناوله الحقيقة . ووقف الخطيان وقد ركبتهما
العمة واستولت عليهما الحيرة . وما أن احتوتهما مقصورة
القطار حتى عادا إلى الحديث ، وكانت ليلي البادئة :

— جمال : ألم أقل لك ؟ ألم أقل لك : اننى حمل ثقيل عليك .
كان الواجب أن تتخفف منى ؟ أو لم أقل لك : اننى أخشى أن

يكون الدهر قد ادخرها لآخر لحظة ، وأن يكون متناعسا وهو
يقظان ؟ قد قلت لك كل ذلك ووقع ما كنت أخشاه ! ان الطبيعة
ربطتنى بحجر ورمتنى فى الماء ، فلا تنص من ورائى ودعنى أغرق -
لقد ربط بينى وبين كوكب اللين ولا أكتسك شيئا .. هكذا
شاء الله أن يفعل وله ما يشاء ، وليس لنا كل ما نشاء !
— وماذا فى رباط اللين ... هى بائعة وأنت شارية .

— لا ... هناك أكثر من ذلك .

— وماذا عسى أن يكون ؟

— لقد أروضتنى واياها زينب ... هى فى البيت ، وأنا فى

الملجأ !

فابتسم :

— انها سخرية طريفة ... وهل علمت بذلك كوكب !

— كلا لم تعلم .

وساد بينهما صمت كأنه جفوة ، وتذكر جمال موقفها واياه
أمس ساعة الغروب وما شهداه وما أشهداه على حبهما ،
ووضع رجلا على أخرى ، وجعل ينقر بالقدم التى على الأرض
كأنه يوقع بها لحنا .

أما ليلى ، فانها لم تكن آسية على شيء الا على أنها تخلق
لحبيها المتاعب . ولو دخلت الى قلبها لرأبت رغبتها فى تخلص
خطيها من عبثها — أكبر أمانيها وأعظم آمالها .

كان القطار ينهب بهما الأرض فى طريقه الى الاسكندرية
حينما كانت كوكب تفضى الى سيدتها فى ابتسامة البلاء بأنها

تعرف عن ليلي شيئا وعلينا أن نقول : انها كانت تفاخر بهذه المعرفة ، وما كانت تقصد الى الايذاء .
قلت كوكب :

— اننى أعرفها يا سيدتى .. يا لها من مصادفة سعيدة ! انها فتاة جميلة طيبة النفس كنت أبيعها اللبن قبل أن أزف الى مجاهد وكانت ممرضة فى مستشفى الدكتور ك ... وتسكن غرفة واحدة على سطح منزل فى القاهرة فى حى ... وقد كنت أستريح عندها كلما نال منى التعب ؛ لأنها أفاضت على حنانا ما رأيته من أحد أبدا .

ولما رأيتهما مع سيدى الدكتور عرفتھا لأول وهلة ، ولكن الوقت كان ضيقا فلم أزد على أن سلمت عليها .
قالت السيدة فى وجوم :

— قد عرفت القصة ، فانصرفى لشأنك .
وعجبت الفتاة لأنها رأت من سيدتها غير ما كانت تتوقع .
وفى الوقت الذى هبطا فيه مدينة الاسكندرية هبط والد جمال مدينة القاهرة ، وقابل الدكتور ك ... فى مستشفى .
وكان بينهما تعارف ، وجلسا يشربان القهوة . وما لبث الدكتور ك ... أن سأل عن ابنه الطبيب .
فقال الوالد :

— هو بخير والحمد لله .. ويفكر فى أن يفتح « عيادة » لمريضاه . وقد عثر على ممرضة علمنا أنها كانت تعمل عندك

فجئتكَ لأسألك عن مهارتها وشخصها ان اسمها ليلى وقد
ركت خدمتك منذ عام .

فسكت الطبيب سكتة طويلة .

فقال له الوالد :

— أهنأك شىء يا سيدى ؟ وخفق قلبه . وغاب لونه ، لكنه
تجلد وتماسك .

— أبدا ليس هناك شىء . انها ممرضة ماهرة .

وأمسك وعاودته الذكريات القديمة ، وكأنا همست زوجه

فى أذنه بأن يقص باقى القصص ، فابتسم وأكمل الحديث :

وجميلة أيضا يا أبا جمال ... ولقيطة ان شئت .

فجمع الرجل جلد الريفى وشجاعته على مواجهة المصائب ،

ولكنه لم يملك أن همس :

— لقيطة ! لقيطة ! ما لنا وللقيطات يا سيدى الدكتور !

وهب واقفا وسلم وانصرف .

وخيم فى هذه الليلة سكون من هم ، ووحشة من غوافه

على ثلاثة منازل : اثنان فى الاسكندرية هما منزلا ليلى

وجمال ، وثالث فى الريف هو منزل أهل الطبيب .

ووقف القدر وقفة الأمر ليخرج من بين شفثيه كلمة !

٧

كانت ليلى فى عسرة من أمرها وهى تمر بين المرضى عقب هبوطها المستشفى بعد السفر . ولو لم تكن رزينة الملامح شديدة الجلادة لعرف كل من هناك أنها مهمومة .

ورأت على أحد الأسرة مريضة جديدة : امرأة قد تجاوزت الأربعين « مطحولة » مهزولة ، تنم ملامح وجهها الأصفر عن آثار جمال قديم ، ولفحت وجهها شمس الريف فدلّت على أنها تعمل بالمزارع .

كانت فستلقية على السرير كاسفة تقلب فى سقف الحجرة عيتين غير مستقرتين كأنهما من زئبق ، وقد جمعت شعرها الأصفر تحت منديل من « الشاش » ، وخرجت بعض ذوائبه فبدا فيها قليل من الشيب الباكر ؛ لأنه غبار الحوادث .

ووقعت عليها عين ليلى فنظرت إليها صامتة ، وبعد برهة سألتها :

— متى جئت أيتها السيدة ؟

— منذ ثلاثة أيام ... ومتى تجرى لى العملية ؟

— لست أعلم .

وولتها ظهرها وسارت .

ومر يوم ويوم ، وأعقبه ثالث ورابع ولم تجر للمريضة
عملية . ومرت ليلى بجوار السرير .
فعادت تسألها :

— متى تجرى لى العملية ؟

فأجابت بخسونة :

— قلت لك : لست أعلم ... ما هذا الالخاف فى السؤال ؟

— ومالك قاسية على هكذا وهم يقولون عنك انك رقيقة ؟

ان حظى يطاردنى فى كل مكان !

فتألمت فى نفسها لأنها ما رميت قط بخسونة ، ولكنها كانت
فى حالة نفسية مرة . وشقت ابتسامة طرقتها بين شفيتها وبهى
تنظر اليها .

فقالت المريضة :

— انما ألخف عليك فى السؤال لأتنى شعرت بميل نحوك

ساعة رأيتك .

— أفتازليننى ؟ !

— لقد مر دور الغزل فلا عليه سلام !

— اذا فلم أحبيتنى ؟

— لأن فيك مشابه من ابنة لى ... أرجوك ألا تغضبى

- لا .. ليس في هذا ما يغضب (وتشاغلت بفحص بطنها) ..
أهى هناك في الريف ؟
- فنظرت اليها ولم تتكلم ، وترقرقت في عينيها عبرة ، ومال
شحوبها الى شحوب الموتى . وكانت ليلي لا تزال مائلة عليها
ورأسها قريب من رأسها فقالت لها في حنان :
- معذرة فقد أثرت همومك ... أهى ميتة ؟
ولكن المرأة لم تجب .
- فتركتها لأنها لم تشأ أن تثقل . ثم بدأت الغريزة تحدث
كليهما بأن سرهما واحد . ونادت الأمومة بنوتها فردت عليها
وإن كان بينهما حجاب من التناكر والأيام .
- وبذلت لها ليلي بعض العناية ، وأبدت المرأة تعلقها بها حين
سألتها :
- من أى بلد أنت يا ليلي ؟ أرجوك ألا تغضبى .
فضحكت :
- أتريد أن تعرفى بلدى ؟ أنا من القاهرة .
— من القاهرة أعلى التحديد ؟
— كأنك محقة ... من قرية قريبة منها .
- ان مسقط رأسى قرية هناك ، ولعلنا أبناء وطن واحد ؟
— أنا من قرية
- لقد صدق حدسى وأصاب فراستى ، فأنا وإياك من بلد
واحد .
- وقرب ما بينهما قليلا ، ودفع القدر كلا منهما نحو صاحبتهما .

فقلت المرأة :

— أتمتعين بحياة الوالدين ؟

فأجابتها ليلى وهى مكبة عليها فى صراحة وهمس :

— بل أنا يتيمة ... لا أب ولا أم !

واصفر الوجهان وتألفت عينا كل منهما ، ومرت برهة من
شك وحيرة ويأس ورجاء .

وقالت ليلى :

— لكنك لم تخبرينى عن ابتك ... أهى ميتة ؟

— ربما كانت حية ؟

بـ ماذا تقولين ؟ أيجهل أحد شأن أبنائه ؟

— لقد سرقها اللصوص وهى لا تزال طفلة .

— لك الله ! ومتى كان ذلك ؟

فوضعت كفها على جبينها وأغبضت عينيها كأنها تستدنى
بعيدا ، وتذكر شيئا طال عليه الأمد ، ثم رفعت يدها ونظرت
إليها :

— كان ذلك ... كان ذلك ... من نحو ثمانية عشر عاما .

ثم غمرهما صمت ولم تستطع احدهما أن تتكلم بعد ذلك .

وجاء العصر فتقابلتا فى بهو من الأبناء حين جمعتهما المصادفة .

وألقت عليها ليلى التحية وبرقت عيناها بسؤال . ولم تكن المريضة

بأقل منها قلقا ولا لهفة ، فأقبلت عليها وأمسكت بشو بها وقالت :

— ليلى ... أمات أبواك من زمن ؟

— كفى أن نعرف أننا من بلد واحد ... دعيى .
ولكنها تثبتت بها واضطربت أنفاسها وتتابعت دقات قلبها :
— أرايت أمك قبل أن تموت ؟
— ولا أبى !
— ليلى ... قد أكون أمك فترفقى بى . ان ابنتى كان معها
خصلة من الشعر .
وأخرجت غداثرها من تحت المنديل .
فكادت تفلت من فم ليلى صرخة ، وقالت لها بصوت مخنوق
وهى تتلفت حولها فى ذعر :
— أنت أمى ... أنت أمى ولا شك !
وكان البهو خاليا فلم يرها أحد ولم يسمعها ، فتعانقتا
وقبلت الأم بنتها القبلية الثانية ، ثم مسحتا الدمع . وحوى
المریضة السریر وجالت المریضة بین الأسرة .
وبقى السر مكتوما عن جميع الناس فلم يعلم به أحد .
أطفئت المصابيح فى حجرات المرضى وبقيت مصابيح الطرقات
ترسل نورها الباهت على أرض المستشفى وحيطانه اللامعة .
ونام مستريح وأن متألم وخيم السكون وان قطعته فى بعض
الأحيان أنات .
وجلست الأم وابنتها فى مكان منزل ليراجعا تاريخ ثمانية عشر
عاما . والتقت ليلى بأم مشكلتها وبمن رمتها للسباع ، ولكنها
كانت تناديهما : يا أمى !
جلستا على كرسى من الخشب يتسع لجالسين ، وقد سامتا

الوجه الوسيم وجها عراه الذبول وجرى فيهما دم واحد . وظهر
من تحت القلنسوة البيضاء والمنديل الأبيض شعر كلتيهما الأصفر
كأنه من شعاع شمس الريف .

وسرت في المكان بعض زفات قبل أن يبدأ الحديث ، وعرضت
قضية العمر والخصمان فيها حبيبان في عرف الطبيعة عدوان في
حكم القانون . قالت الأم :

وهكذا صرت ابنتي يا ليلي ؟

— ولكنك لم تسميني ولم تزوديني ب زاد الا ما تعارفنا به ،
و كنت واياك من طريقات المجتمع ، ولكنني أدعوك : يا أماء أنت
أصلى وان كنت أى شىء ، أحنو عليك على الرغم من كل شىء !
وأجهشتا بالبكاء .

— أعيذك يا بنيتي من أن يكتب لك ما كتب لى في حياتي فانتى
كنت فريسة الشيطان .. أنا أدعو لك يا ليلي ويسمع الله لأنتى
لا أدعو لنفسى . لقد عشت لأكفر وحملت سياط العقاب غير
صارخة ؛ ليكون تكفيرى عن خطيئتي مرحمة لمن حملت بين
أحشائي . وكنت تريننى أكثر ما أكون دعاء أشد ما أكون عذابا .
وقد شهدت الحقول جثوى — ولا يرانى انسان — وأنا رافعة
الى السماء كهين مرتجفتين وعينين دامعتين ، وخدين خددهما
البكاء — أدعو الله أن يرعى اقامتك حيث لا أعلم ، وأن يظهرنى
بالألم وينقينى بالعقاب .

ان الطفلة التى سمعت بكاءها الحقول: لى أعز على أمها من
طفلة اهتزت لمولدها المخادع وغنت لمقدمها البيوت ، وأوقدت

في سبوعها الشموع . لكن الناس وققوا بيني وبينك ، فرميت
بك للأقدار لأفر من نار العار .

أعيذك يا بنيتي أن يكتب لك ما كتب لي في حياتي ، فإن
وضاعة جمالي خدعتني فحسبت أن سلطان الجمال ليس يغلبه
تغريير الرجال ولكنني كنت خاسرة .

تزوجت ابن عمي فلم أسعد وطلقت منه وشيكا وعشت في
رعاية جدك . وهو زارع صغير في عزبة من العزب الكبيرة .
وأقمنا في القرية الأولى أسعد برعاية الأبوين وأنعم بنضارة
الشباب ، حتى ساق القدر الى طريقى فتى من أغنياء الريف مثل
دور العاشق وأحكم تمثيله . ووعدنى بالزواج فوللت .. وغاب
عنى

ثم كانت طفلة لفت في خرق وألقت في المزرعة . وتسامع
الناس الخبر - على أنه كان مكتوما - فطرردنى وأبوى رب
العزبة ، وانتقلنا الى مزرعة أخرى في شمال « البحيرة » حيث
ماتت أمى وقاسيت أنا وأبى شظف العيش ، وآليت أن أقضى
العمر مكفرة .

واشدت بنا الأيام وأرسلت على زرعنا الآفات ، كآثام حمل
أبى آثام أعمالى . وأخيرا مرضت كما تريننى فجاء بى جدك الى
المستشفى وتركنى وعاد .

وأعيذك يا بنيتي أن يكتب لك ما كتب لي في حياتى ، فانها
سلسلة من بؤس ومتاعب وغتب وشقاء ، لم يكن فيها ضاحك
الا الحلقة الأولى .

قالت ليلي بعد أن قصت على أمها الصدر الأول من حياتها .

— وأنا مخطوبة ولكن بينى وبين خطيبي جفوة ...

— غدا تزول ... ومم حدثت ؟

— من آثار الماضي !

— لهف نفسى ! أهنا يذاع ؟

— ان الشر سريع الذبوع .

— لنا الله ! أرجو أن أموت هنا فانى مشرقة . ما كان يجب أن

أظهر فى أفقك أبدا يا ليلي ، ولكننى سبب لمغيب .

— ان ما بيننا لا يعرفه أحد .

بـ كما تقولين يا بنيتى ،

وحوى المريضة السرير . ولا يزال القدر واقفا وقفرة الأمر

ليخرج من بين شفتيه كلمة !

٨

كان شيء من الجفوة لا يزال قائماً بين ليلي وجمال خلقه لهما
الحظ وبدعته لهما الأيام . فكان هو في موقف البذى لا يأخذ ولا
يدع ، وهى في موقف المترث الصابر .
وأوى جمال الى فراشه في هذه الليلة — كما أوى اليه في كل
ليلة عقب العودة — كاسف البال مضطرب البلبال ، حاسباً لما
تأتى به الأيام ألف حساب .

وطرق الباب فخف خادمه ليفتح ، وأوقد في الحجرة الخارجية
مصباح النور ، واستأذن الخادم على سيده وأبلغه أن أباه قد
حضر ..

وأسرع جمال الى هناك ولما دخل عليه قرأ الشر في أسارير
وجهه : فقد كان الرجل كأنه ناهض من فراش مرض ، وقريب
عهد بسقم . تغلب الصفرة على وجهه الأسمر ، ويجرى شيء من
الحمرة في بياض عينيه كمن أرق ليالى طوالا . ولم يكن معه شيء

من متاع السفر لأن المسافر غير راض ولا هادىء ولا مقيم .
وبدأه ابنه بتحية مهذبة ، ثم سأله عن حال من هناك فأجاب
كمن يحفظ الاجابة .

— كلهم بخير ... وكلهم يخلوننى السلام اليك ... حتى
الدكتورك ...

فهم كل شىء .

— أبى ... لقد أصبحنا فى موقف التكاشف ، وقد جئتنى فى
الوقت المناسب ؛ فأنا فى موقف لا آخذ فيه ولا أَدع . وأنا أعلم
كل شىء من أمر هذه الفتاة لكننى حاولت أن أفرضها على
المجتمع فلم أفلح . وأعلم أن الدم الريفى الذى يجرى فى عروقك
هو نفس الدم الذى يجرى فى عروقى ، فأنا مثلك غيرة على
الشرف ، وحرصا على التقاليد . غير أنى تهذت الى حقيقة الفتاة
وعرفتھا ... وأحببتها أيضا ... ويخيل الى حتى الآن أننى لا
أستطيع أن أعيش بدونها ، الا اذا حدث ما يحول كل ما رسمته
حيالها . فان كنت ضنينا بولدك فلا تحل بينه وبين زوجه ، ولا
تكن من الذين يأخذون بالأوزار غير فاعليها ... وأنا حتى الآن
لا أزال راجيا مطيعا !

وكان بين الاثنين موقف عاصف رأى فيه الآب اصرارا ماكان
يتوقعه ، فأرغى وأزبد وخوف وهدد ، ولكن طار كل هذا
أدراج الرياح .

وخيم السكون على الحجرة ساعة من زمن وغير الشيخ
سلاحه فبدأ يياسر ولده :

(لقيطة)

— لا تنس يا بنى ما لك من قيمة فى المجتمع وما لاسرتك من مكانة يشار اليها ، فلا تركب رأسك وتخضع لعاطفة ستبوح حينما يضمكما فراش الزوجية ! غدا تندم يا جمال وتعلم أنك اخترت من لا تجرؤ على أن تعلن أمرها بين أقرانك ، وأن أبناءك سيسألونك يوما عن أخوالهم وأجدادهم فلا تجد لسؤالهم جوابا !
— اننى أريدها وحدها فلا ترهقنى يا أبى !

— أهكذا تحبها ؟ يا لك من مأفوك ! أنت غريب مفرر بك ...
أقسمت لا أبيت عندك .

ودوت فى ظلام الليل ردة الباب والأب خارج يملؤه الغضب .
ولم تكن ليلى تعلم أن الذى بدت جفوته انما يكن لها الحب الخالص ويجاهد فى سبيلها التقاليد !
غير أن المقادير كانت تدبر مخلصا لمشكلة خلقتها والأحباب غافلون .

ولا يزال القدر واقفا وقفة الأمر ؛ ليخرج من بين شفثيه كلمة !

ليس شيء من أنواع الحيرة أشد من حيرة المحب ؛ لأن القلب فيها يكون مشغولاً بخلق المعاذير لحبيبه ، فإذا ما عرضت على العقل لفظها وأنكرها ، فيستأنف القلب عرضها من جديد ببرهان أقوى وحجة أثبت حتى تكون له الغلبة . فيقف العقل والمجتمع معا وقفة التعجب ، ثم لا تلبث القضية أن تندمج في غمار الوجود ، وتقنى في تيار الزمان .

وهكذا نفسية جمال الذي وعد بأن يحمل حبيبته على كتفيه ليمر بها من عقبات المجتمع ، فتألبت عليه الأهل والحوادث ، وأذاع الزمان ما في ضميره من سر حتى ما بقيت في ثناياه خلجة . ظهرت كوكب فظهر الدكتور ك ... ثم ظهرت أمها ... وما بقي بعد ذلك من شيء .

وكان موقف أخير جمع الخطيبين في حديقة ما هبطاها أيام نام عنهما الدهر . فجلسا على أحد مقاعدها متجاورين والبعد بينهما شاسع ، وقد بدا وجه ليلي ذليلاً نحيلاً كأنه زهرة من زهرات

الحريف . وفى عينيها الواسعتين انكسارة كأنها رमित بشين .
ولم يكن يفوح من طيات ثوبها ولا تلافيف شعرها عطر .. كانت
أشد ما تكون نغمة على جمالها فى هذا اليوم ؛ لأنه لفت اليها
الأنظار وسار بها الى مواطن الاحراج .

وقال لها جمال أول ما رآها بانتظاره :

— معذرة فقد تخلفت قليلا .

— ليس هناك ما يدعو الى الاعتذار .

كانت نبرات فارغة لا تومىء الى معنى ؛ لأنها اعتنقت فى هذا
الموقف مبدأ تخيره « اترك الدنيا التى تركتك » .

— أن جونا يملؤهم السحاب !

— وماذا نعمل لو أنه أمطر؟ أنستطيع أن نقول للأرض: ابلعى
ماءك أو للسماء أقلعى ؟ أو أن نتخذ من حبال المطر أسبابا نرقى
بها الى السماء ؟ انما نفر من قضاء الله الى قدر الله ولن نغير من
الواقع شيئا .

لقد نهكتك الهم وأذواك الفكر فى غير طائل كأنك كنت أخذت
المواثيق على الزمن بأن يمدك بسعادة أبدية ! هبنا تزوجنا ثم
اختطفنى من بين يديك الموت ، فماذا كنت تفعل؟ لا بد من فجیعة
فى الأحباب طال الأمد أم قصر ... فجیعة حياة أو فجیعة موت
وما يجب أن نرسل زورقنا والبحر هائج الا اذا حكمنا على
أنفسنا بالهلاك . ولا بد أن يعلم أبواك بصرى لأن الزمن يشرثر
بقصتى من يوم ميلادى . وما أظنه سيمسك !

يجب أن نروض النفس على الحرمان ، فذلك خير لنا من أن ندلف الى المائدة فننحى عنها

وبعد ، فان محملى عليك ثقيل ، وارتباطى بك يقطع ما بينك وبين أهلك من أواصر ، أفترانى أرضى بما يؤذيك ثم أدعى بعد ذلك أثنى أحبك ؟ سأضحى بسعادتى من أجلك فعد الى أبويك وأنبئهما بأنك عدلت ، وسأعود الى حياة العزلة ، وأنفذ ما تمليه على الأيام !

— ترى أنت سالية أم متسلية ؟

— ما أنا بهذه ولا تلك ، وإنما أنا ليلى التى تعرفها . غير أن بداية حياتنا صاحبة لا تبشر بالهدوء ولا السلام .

حسبك ما فات يا جمال ، وانج منى فأت لغيرى . وقد رآنا الناس نصفين غير منسجمين ، ولن تستطيع أن تسعد بى الا اذا عشنا فى ظلال غابة أو فضاء صحراء . أما السعادة بين الناس فهي فى أن يقول الناس : انه سعيد . والا ما تخيرت من ألوان ثيابك ما تظن أنه يفتن الأبصار .

نحن فى فورة من الحب أخاف أن يعقبها ركود من تعب واستجمام من عناء ، فأفقدك أو تفقدنى ونفترق متناكرين .

خير لى أن أظير عن زوضتك عصفورا يودع الربيع لاعصفورا شرده الشتاء . ولتمسك على ما فى نفسك ولا تمسك على ما فى نفسى ، فان ما عندنا لا يسر !

فابتسم متألماً :

— كأنك تعلمين أن أبى قد جاء ، وأنه على علم بكل شىء .

— حدثني بذلك قلبى فلا عليك يا جمال . لو كنت رجلا ما
جزعت أبدا على امرأة ، لأنها سلعة معروضة أفتش فى سوقها
عما يرضينى . أما الرجل فما كان سلعة قط !
— أنت تحملينى على أن أنساك بما تغضين من شأن المرأة ،
وذلك غاية الاخلاص . ليلى : أنا جمال لم أتغير . وثقى بأننى لن
أتغير ، وسيخضع لحننا الزمان .
— لقد فات الأوان .

— وكيف فات ؟

— كتبت الى السيد الأمين لينقلنى الى مكان ليس بالقاهرة
ولا الاسكندرية ؛ لأعيش حيث يجهلنى الناس . ولن أعيش
وحدى !

— ومع من تعيشين ؟

قالت وهى مطرقة :

— مع أمى ... لقد ظهرت على الأفق ... انها بين مرضى
المستشفى . أفترانى بعد ذلك أصلح لك زوجا ؟

ودخلت الى قلب جمال مشكلة جديدة تريد وقتا من الزمن
ليتغلب عليها القلب ويسيطر عليها الحب ، بعد أن تغلب القلب
ويسيطر الحب على موقف أبويه منه . فكان بينهما صمت وحيرة
وذ هول . وعادت العصافير فى الحديقة تسخر منهما بالشقشة
والأغصان تسخر بالتراقص ، وخيل اليهما أن السعادة فى مكان
حصين لا يستطيعان أن يصلا اليه .

وباخت الفورة وفترت الحمية ، والتقت العيون وتساءلت
في صمت :

— ترى ماذا عسانا أن نفعل ؟

ونفض الحبيبان معا كآثما أتياء على أثر ضغطة زر ، وسارا
صامتين كليلة سارا على سيف البحر قبل أن يتحابا ، كأنهما
منصتان الى وقع أقدامهما .

وتواقفا للوداع فسلما وقال جمال :

— لنتنظر يا ليلي ما يأتي به الغد !

فقال في تشاؤم :

— أجل لنتنظر ما يأتي به الغد ، فلعله ادخر لنا ما لم يدخل
في حسابنا .

وقال لها :

— وداعا .

فرفعت صوتها :

— وداعا

ولكنها قالت في نفسها والقلب باك والطرف ساكن :

— وداعا الى الأبد ؟

تماثلت الأم للشفاء ثم غادرت المستشفى وشاركت إبتها
حجرتها زودحا من الزمن . وبقيت ليلي في انتظار النقل بعد أن
وعدها السيد الأمين بالتنفيذ . وكانت أيامها عليها حلوة وثقيلة .
تريد أن تستبقها لتتعم بخطيبها من بعد ، وتريد أن تمر ليسدل
على قصتها الستار . أما جمال : فكان يدور في حلقة مفرغة لا
ينتهى منها الا ليبدأ ، وينظر الى قطعة من قلبه تدور في أنحاء
المستشفى ولا يستطيع ضمها اليه .

وجرى العمل في المستشفى كما يجرى كل يوم ، ووقفت
طائفة من الممرضات يعقمن أدوات الجراحة بعد العمليات، وكانت
ليلي بينهن تعمل وهي ذاهلة شاردة . وانبعثت من فمها آنة .
فسألته احداهن :

— ماذا حدث يا ليلي ؟

— ان المشروط جرحنى .

— لهف نفسى ! سارعى بتطهير اصبعك .

وصبت على اصبعها قليلا من الغول .

وسار العمل كأنه ما حدث شيء .

وحل المساء فأحست أن يدها تؤلمها ولكنها لم تسألهم الوساوس
وأعرضت عن نفسها حتى الصباح ، ونقضت عنها غطاءها ونهضت
متغيرة الوجه عابسة القسمات ، فسألتها أمها عما بها ، فأخبرتها
أن جرحا هينا بإحدى يديها .

ولما كانت في المستشفى عرضت نفسها على الأطباء فألفوا
حرارتها مرتفعة .

وأخذت الحوادث تجرى بسرعة ، فما حل اليوم الثانى حتى
كانت ليلى على أحد أسرة المرضى غائبة عن وعيها لأن جسمها
قد تسلم .

ولو كنت شاهدها لأبصرت حولها جماعة من الأطباء وبينهم
الدكتور جمال وكلهم فى وجوم وأسف ، يدافعون عنها القضاء
والقضاء لا يدفع ، وقال كبيرهم :

— ان الحالة خطيرة وما أظن أن المرض سيقف ، ولا بد من

بتر الساعد .

قال جمال :

— أظن ذلك ... ولكن ... أليست هناك معجزة ؟

— انها من السماء ... ومنتظرها الطب بعد أن يؤدي عمله !

وخرجوا جميعا وعاد جمال ، واتبعت ليلى من الغيوبة قليلا ،

ووقف الحبيب ليلقى الى حبيبته بأسوأ الأخبار ؛ لأنه ينطق عن

لسان القدر . فقال وعيناه تسبحان فى الدمع :

— ليلي ... لا بد أن تنصتي الى كلمتي : اننا لم نستطع للبلاء
دفعاً ، ولكن لا بد أن تعيشي .
فقالت في استسلام وخضوع :
— ماذا هناك يا جمال ؟
— ان ذراعك قد فسدت ، ولكن لا بد أن تعيشي .
— أتريدون أن تقطعوها ؟
— بل يريد الله !
— وعجز الطب يا جمال ؟
— والحب يا ليلي ؟

فاستوت على السرير حتى كانت نصف جالسة وقد تهدل
شعرها الأصفر وتشعث ذوائبه لما أهمله المشط ، وبدا اتساع
العنين أكثر لأن الوجه نازل سقيم ، وأمسكت كفه بكفها
السليمة وأخذتها نوبة من البكاء جعلت تقول :
— أتريدون أن تقطعوها يا جمال ؟ كلا لا تقطعوها ... لقد
نبذتني الحياة أنضر ما أكون ، فكيف بي اذا عشت بذراع واحدة ؟
وقد فر الناس من جمالي ، فكيف يقبلون على فتاة شوهاء ؟
لم يشفع للزهرة العطر ، فكيف يحملونها غير ثقاة ؟ ولم
يشفع للبدر التمام ، فكيف يطالعونه في ساعة الخسوف ؟
دعوني أمت ، فقد رقت هذه الرقدة وأنا طفلة ولكني لم
أمت ؛ لأنني استيقظت لأداء حساب وقد أديته ، ولم يستطع
الزمن أن يحل مشكلتي وقد حلها الشرط . لا تأس على شيء
فاننا ما خلقنا للخلود ! !

واشتد عليه الموقف فولأها ظهره وخرج ، وذاع في المستشفى
أن ليلي لم تطق أن تعيش بذراع مبتورة . وأخذ الطب يجمع
الأعاجيب والقضاء أيضا يجمع الأعاجيب ، والسّم يرى في
البدن اللدن سريان الماء في العود حتى رفعت راية التسليم .
واستحال كل شيء في ليلي وحال . ورفرف القضاء على
سريرها ليقع .

لقد ذوى العود وعريت الأشاجع واسود ما حول المحاجر ،
ولم يبق من آثار الجمال الذي يعد قنعا الا خضرة في العينين
وأهداب طوال . وخفت الصوت وزهبت برئنه البحة
واسترجعت الحياة آثارها وألقى الموت على الوجه ظلاله ، وبدأ
العمر يعد بالساعات .

ووقف بجانب السرير حبيبان أحدهما ناظم على الطب ،
والآخر يستنجد الطب في لهفة وبلاهة .
كان الأول جمالا والثاني أم ليلي التي لبست السواد وأخذت
تردد :

— ألا تملك لها شيئا يا دكتور ؟

لقد ألفتها للموت منذ ثمانية عشر عاما ، ثم جاءت لتستقنّها
من الموت .

وأخذ مصباح عمرها يشتف ما بقي من الزيت ، ليرسل الى
الواقفين بأخر شعاع ، فأمر جمال أم ليلي بأن تخرج لأنه
سيضعفها بشيء .



— وعجز الطب يا جمال ؟

— والحب يا ليلي :!

ومالت المرأة على ثغر فتاتها فقبلته وخرجت ، ونبهها الطبيب
بما أطلق ليتزود بكلمة ممن كان يرجو أن تكون شمس بيته
وريحانة وجوده ، وقال لها :

— ليلى ... أتعرفيننى ؟

فخرجت من شفيتها بنسمة ضئيلة كأنها آتية من العالم الآخر
وأومأت اليه بأن يدنى أذنه من فمها وقالت :

— جمال ... أنا مستريحة ... فلن أشقى ... فى العائم
الآخر . . اذكر . . الخميس . . أضحم شجرة . . على
عين . . الطريق .

وثقلت أجفانها وأغمضت ... ثم انفتحت نصف فتحة .
ومال الرأس على الوسادة ، وغابت عن الوجه بشاشة الأحياء ،
وأرسل الفم كلمة واحدة خافتة كأنها أعقاب صدى مول :
— وداعا ...

فخطف جمال من الموت قبلة .
وتخلى القدر عن موقف الأمر ؛ لأنه أخرج من بين شفثيه
الكلمة !

ثم جىء بالألم وأخبرت بأن الأمر قد انقضى ، ورددت أفواه
كثيرة : انا لله !

وأقلت القطر التى تسافر نحو الجنوب أم ليلى ، وقد غفر
أقدامها تراب المقبرة ، وجمالا الذى لم يطق المقام فى الاسكندرية .
بات ليلته عند أهله وأخبرهم أن القضاء قد فض الخصام ، وأن
ليلى باتت فى العالم الهادى ، وتركت الدنيا ونظام الطبقات .

وكان الحزن آخذاً منه كل مأخذ حتى رثى له أبواه ، وجعلاً
 يصبرانه ويسليانه ، وقد كانا بالأمس غذاله ولوامه .
 وجنحت شمس اليوم التالى الى المغيّب في غروب حزين ،
 وجمال واقف بجانب أضخم شجرة على عين الطريق .. لكنه كان
 وحده وكأنه في محراب !
 لقد ودعا في الأيام الخوالي أسعد شمس ، وها هو ذا اليوم
 وحده يودع آتس شمس !
 واذا كان جمال في القرية تردد على الطريق جيئة وذهوباً . واذا
 كان في الاسكندرية تردد على المقبرة .
 ومر الزمن ... فنسى ذكر ملجأ ج ... ومستشفى الدكتور كـ
 ومستشفى الاسكندرية الأميرى .
 وتجمع على المقبرة تراب كثير ، وأمست الأيام عن ذكر
 ليلى وفرغت من شئونها الأقدار !

رقم الإيداع : ١٩٨٩/٨٢٨٥

الترقيم الدولى : ٢ — ٠٥٦١ — ١١ — ٩٧٧



Bibliotheca Alexandrina



0294229

الثلث ٥٢٥ قرشاً

دار مصر للطباعة
بيروت - لبنان